بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 22 مارس 2016

ثقافة العنف واللاعنف في الفكر الإسلامي

يوسف محمد بناصر
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016

الملخص:

يعتبر العنف مشكلة ثقافية واجتماعية انسانية امتدت عبر التاريخ، وتعقدت مع اختلاط العنف بالمقدس، وتورط الفهم السيء للدين والتأويل المختلط بالنزعة الايديولوجية والعقائد المغلقة بمضامين بعض النصوص الدينية، وقد خاضت الثقافة والحضارة الاسلاميتين تجربة تاريخية مع مختلف أشكال العنف الديني عبر فترات الصعود والانحطاط، فانبثقت فرق اسلامية أسست رؤاها السياسية على السلوك العنفي بعد أن عززته بخلفية دينية، ولايزال ذلك يؤثر على التاريخ الاسلامي سلبا لأنه أمسى مرجعية معتمدة عند بعض الجماعات الجهادية المعاصرة.

إن مواجهة العنف الديني لا تكون إلا بالمعرفة والتربية على حرية الفكر والضمير والارشاد للإبداع بدل السقوط في فخ الرجوع المكثف للعقل الماضوي، وهذا الرجوع يعني السقوط المتكرر على عتبات أحداث مأساوية تاريخية؛ باستعادة بعضها بما تتضمنه من ثقل على المستوى العاطفي والروحي والمعرفي والسلوكي. إن العمل على تنمية القيم الروحية وتوسيع آفاق التواصل والتعارف يمكن المجتمع المسلم من تجاوز ثقافة الانغلاق التي سقط صريعا بسببها لمدة الاستعمار، فأنتجت لديه الاحساس بالكراهية والبغض وثقافة الالغاء وعدم الاعتراف كردة فعل فيما بعد.

يعد العمل السلمي واللاعنفي كما تدبير الحوار والصراع ثقافة غير معترف بها إلى الآن؛ في ظل سياق مجتمع يعيش على العنف والتطرف وتصاعد الكراهية بين مختلف مكوناته العرقية والمذهبية والسياسية..، والعمل على تجاوز هذه السلبيات وتشكيل ذلك الوعي والثقافة لا يكون إلا بإعادة قراءة النصوص الدينية بعقلية مستوعبة لتحديات العصر ومشكلاته المعقدة، ويمكن تعريف تلك القراءة بأنها هي القدرة على امتلاك معرفة لا تتحيز للماضي وعقل تنويري نقدي لا يتعامل مع النصوص دون منهجية مقاصدية مع انفتاح على انتاجات المعرفة الانسانية والاستفادة منها دون توجس وبمختلف مجالاتها.

إن مختلف الثقافات الانسانية تعيش على وقع عنف في غالب الاحيان تكون خلفيته دينية، والمعرفة والمجتمع الاسلاميين ليسا بدعا عن تلك الثقافات، ويبقى السبيل للتحرر من هذه الرذيلة أن تتظافر جهود الباحثين والمربين والمفكرين بمختلف تخصصاتهم لتأسيس بيداغوجيا تصحح بعض المفاهيم والسلوكات التي تبقي حجم ثقافة العنف متضخمة ونابضة في المجتمع، مما قد يساعد على تجفيف منابعه وتعويضه بثقافة التعايش والسلم والمعرفة والقدرة على الانفتاح والتواصل، وبناء جيل مستقبلي يطمح للسلام ويخدمه ويسمو بروحه وسلوكه ومعرفته حتى يصل للكمال الإنساني والحضاري.

مقدمة

يعتبر هذا البحث نتاج سلسلة من المراجعات الفكرية، وخلاصة لصيرورة أفكار النقد الذاتي، وهو أيضاً ملخص لمسيرة من الآراء والمواقف والأحداث التي تخص مرحلة من أهم مراحل حياتي، وهي مرحلة الشباب والجامعة. فقد كان هذا البحث في إرهاصاته الأولى عبارة عن قلق فكري شاق ومتواصل، كما أنه كان حلماً طالما راودني، لذلك لم تجتمع خيوطه بسهولة إلا بعد فترة مراكمة فكرية، امتزجت بالتزام حركي وتنظيمي وبقناعات على مستوى التغيير المجتمعي، فخرج في ولادته الأولى على صورة مقالة صحفية في إحدى الجرائد المغربية[1]، لينمو بعدها، وتنمو معه تساؤلات جديدة وإشكالات متسلسلة، كانت اللبنة الأساسية ليتجسد ويكبر، لأخصّه بعدها بقدر كبير من الاهتمام والعناية، ظناً مني أنّ ولادته الأولى - في شكل مقال- غمط لحقه في الاكتمال والنضج، ثم في أن يشهد ولادته الطبيعية، لأنّ الأولى كانت قيصرية، محاولاً في هذه المرّة أن أحيط بجوانبه المتعددة، وأن أتعامل معه بشكل أكثر أكاديمية ومنهجية.

المدخل التمهيدي ـ العنف واللاعنف، رؤية معرفية:

يُعتبر العنف أول مأزق من مآزق البشرية، وهو سُنّة سيئة تنبأت بها الملائكة، (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[2] وحدث أن قال قابيل بعد ذلك لأخيه هابيل [لَأَقْتُلَنَّكَ][3]، حين رفض الاقتناع بالقاعدة التي قررت تحريم التوأم، باعتبارها قاعدة المحارم، فرفض قبولها لهواه في سبيل الحصول على ما ليس له وحرّم عليه[4]، إنها الانطلاقة الأولى، والشرارة التي جعلت الإنسانية - منذ عهد ابني آدم - تكتوي بنارها، وما زالت المأساة تدور على الشكل والأسلوب نفسيهما حتى بدا كأنّ العنف من سمات الطبيعة البشرية يتجلى في كل صور التعبير عنها، ويتّسم به الفرد والجماعة[5]، وترجع ممارسة هذا المنطق الإقصائي ومنهج النفي لأسباب أهمها عدم القدرة على التواصل والانغلاق على الذات، وضعف آلية الإقناع والدليل العقلي، ومتى انغلق العقل تكلمت اليد[6]، فيتحول مسار الضعف تلقائياً ليتخذ مسار القوة، وهو الإيذاء باليد أو باللسان أو بالفعل وبالكلمة مع الآخر[7]، وهذا أقصى جرعات العنف، ولكنه أيضاً طيف متحرك من الإمكانيات والسلوك يتأرجح من الفكرة إلى الفعل، فالحروب تبدأ في الرؤوس قبل سلّ السيوف،

1. بعنوان: "ظاهرة الخوارج الجدد وإشكالية العنف واللاعنف: مساهمة في نقد الفكر الديني عند الحركة الإسلامية المغربية"، جريدة التجديد المغربية، الجمعة ـ الأحد 4-6 يونيو 2004، العدد 944، ص 12

2. البقرة: من الآية 30

3. المائدة: من الآية 27

4. يسري، أحمد، حقوق الإنسان وأسباب العنف في المجتمع الإسلامي في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي الجامعي، دون ذكر لمكان الطبع، ط. الثانية 1995، ص 11

5. المرجع السابق نفسه.

6. نفسه.

7. خليل، أحمد خليل، "سوسيولوجيا العنف"، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 27-28 خريف 1983، ص 19 بتصرف.

والكراهية هي تعبير الوجه الحاقد واللفظة السامة ومدّ اليد واللسان بالسوء[8]، إنها مسيرة من متسلسلة يتم فيها بناء قواعد إنسانية تؤسس إمّا لمنطق التسامح والتعايش وإمّا للعنف، ممّا يجعل الإنسان يتخذ قراراً بتحقيق نبوءة عتيقة فيملأ الأرض ظلماً ودماً بعنفه وصراعه مع أخيه الإنسان، أو أنّ هذا الإنسان سيحقق كلتا النظريتين، ويستصحب معه منذ الأزل كلا المبدأين، فيظل متأرجحاً بين السلم والعنف، بحسب ظروفه النفسية والاجتماعية والسياسية. ويخلص عالم النفس الاجتماعي غاستون بوتول في تقديمه لكتاب فاوستو أنطونيني «عنف الإنسان» إلى أنّ حياة كل المجتمعات الإنسانية المنظمة تتأرجح بين عالمين: عالم العمل والإدخار وتحريم أعمال العنف، وعالم القتل المنظم والمدبّر وطقوس التدمير والهدم. ويعلق محمد الرميحي على كلام غاستون قائلاً: يبدو أنّ ذلك صحيح إلى حدّ بعيد، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ العالم الأول يتسع ليشمل اللاعنف من أبسط أشكال الحوار وحتى أكثرها تعقيداً، بينما العالم الثاني يزدحم بكلّ أنواع العنف ابتداء من نبذ أبسط أنواع الحوار وحتى أبشع أنواع القتل والمجازر[9].

هكذا، إذن، يكاد الإنسان منذ الأزل حتى عصره الحالي يتأرجح بين عالمين: عالم يعيش فيه أناس يختلفون في قيمهم وعاداتهم وأفهامهم وقدرتهم على قبول الآخر بأفكاره وكلّ ما يلازمه، وعالم آخر ملؤه الكراهية والحقد والظلم والانغلاق والإقصاء، والاستحواذ على مقدرات وأملاك الآخر ومحدداته الثقافية والروحية، فكان القاسم المشترك في ذلك هو الإنسان الذي ينشط ويؤسس سلوكاته في بيئة مزدوجة ومعقدة، وهذا التعقيد نابع من عدم التخلص من نزوات ذاتية شيطانية ينتج عنها في الغالب عنف يتمظهر في ثلاثة منحنيات رئيسة؛ تبدأ من الكراهية أو التهميش وحذف للآخر كفكرة كمونية شيطانية (أنا خير منه) تتطور إلى التصرف باللسان بعد اعتماد الخطاب الإنساني من الهمز واللمز والاحتقار والسخرية، وتنتهي باليد والسلاح لإيذاء وإلغاء الآخر، لتصل في تصعيدها الأعلى وجرعتها القصوى إلى التصفية الجسدية وإلغاء وجوده المادي والمعنوي بما يشبه عملية التأله، فالحياة والموت بيد الله، والعنف يرى أنه يحيي ويميت «وأنا أحيي وأميت» كما قذفها الملك في وجه إبراهيم الهادئ عليه السلام، أو نطقها والد إبراهيم عند اختلاف الآراء [لأرجمنك][10].

فإذا كان الشيطان تحدى الأمر الإلهي وتكبّر عن السجود لمخلوق آخر أدنى منه في الخلقة على حد زعمه (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[11]، (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[12]، فإنّ الإنسان عصى ربه بأن استحلّ دم أخيه

8. جلبي، خالص، سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي. دار الفكر العربي المعاصر، بيروت، ط. الأولى 1998، ص 136

9. ينظر: محمد الرميحي، "حتى لا يكون حصاد التطور العربي صفراً... ماذا عن التحول الحرج؟". مجلة العربي، عدد 458، السنة 1997م، ص 15

10. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 136

11. سورة البقرة: 34

12. سورة الأعراف: 13

الإنسان وبسط إليه يده لنفيه من الوجود، فكان لا بدّ من إيجاد مخرج لهذه المعصية حتى لا تحق اللعنة على الجنس البشري إلى الأبد بسفك الدم، وذلك بأن ردّ هابيل على أخيه قابيل بقوله: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)[13]، بامتناعه أن يكون شريكاً في جنس العمل السيئ بالرد بالكيفية الدموية نفسها، مكتفياً بالامتناع عن الانتقام لنفسه أو الدفاع عنها بشكل أو بآخر، فأسّس لمبدأ الصفح والتسامح الذي، للأسف، لم يستوعبه الكثير من أبناء جنسنا، ولم يستوعب بعد فكرة صراع ولدي آدم كأسلوب متقدم لحل مشاكل الصراع الإنساني، وهذا يروي قصة مرض الثقافة وتشربها بالعنف، بل إنّ القصة تحمل بُعداً تقدمياً ما زال الشوط فيه بعيداً أمام الجنس البشري كي يحقق النموذج الإنساني السليم[14]، ولعل أبرز دليل على عدم استيعابنا للدرس وعدم استخلاصنا للعبرة من قصة ابني آدم، هو ما نراه في عصرنا الحالي من أزمات تهبّ على العالم المعاصر، رغم ما ندعيه من تحضر ورقي ووعي قد يمنع عنا مثل هذه الأخطاء -إن صح ما ندعيه فعلاً-، فالحروب والصراعات البشرية والنكبات الإنسانية وغيرها من الفواجع تحكي لنا أطوار الحكاية وتحدثنا عن المشاهد المصغرة للقصة الأولى، ولكن بشكل أفجع وقسوة أشد، فيما نشاهده كل لحظة وكل دقيقة أو نسمعه أو نقرأ عنه عن استمرار المأساة بأشكال وألوان متطورة وفتاكة في أغلب مناطق المعمورة، كل هذا يؤكد أنّ العبرة لم تؤخذ بعد من القصص الأول، وأنّ الإنسان طغى واستبدت به نفسه الأمارة بالسوء، فما يزال يعيد القصة نفسها، ولو كان ذلك بطرق متطورة وأساليب مستحدثة، فالجوهر والمعنى واحد، من هذا ننطلق لنسقط الحدث على كل عصر، حيث نرى أنّ ولادة قابيل وهابيل ومسلسلهما يكون ممكناً، وقد نحضر تلك اللحظة أو ذلك الموقف بوعي منا أو بدون وعي، المهم أنّ لكل زمان «قابيله وهابيله» رغم اختلاف الأسماء والأزمنة والأمكنة، فالحدث التاريخي يعيد نفسه، ثم إنّ السؤال المطروح الآن هو: إلى أي حد تمكن هابيل كل زمان من كبح نوازع الشر والتدمير لدى أخيه قابيل؟ الإجابة عنه تبقى مفتوحة على التاريخ، على أن يبحث العقل البشري عنها ويستخلص منها العبر.

من مبدأ «التاريخ يعيد نفسه» نستخلص أنّ الصراع الإنساني منذ الأزل إلى ما شاء الله، ينتج لنا نظريتين: تقوم الأولى على رد العنف بالعنف بل أشد منه، فهو يلجم العنف المقابل أو هكذا خيل للإنسان منذ مطلع التاريخ - حالة قابيل وأعوانه عبر التاريخ - وتقوم النظرية الثانية على عدم رد العنف بالعنف، وإنما إطفاؤه بالحب أو تحديه بسلم هابيل وخلانه[15].

فالحالة العنفية التي يمثلها قابيل وأعوانه، والمتلخصة في رد العنف بالعنف ليست هي الأصل، أولاً: باعتبار أنّ القصص القرآني الذي حكى لنا عن الحادثة وكيف تصرف أحد طرفيها بعدم الرد بالمثل، وثانياً: أنّ الإسلام آخر الديانات السماوية، وأتباعه أصحاب كتاب وهو القرآن الكريم الذي يؤسس في أغلب آياته لخطاب سمح مع كل الأطراف المختلفة معه، حتى إنه دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يربي أصحابه

13. سورة المائدة: 28

14. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 169

15. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 169

على السماحة، ويسنّ فيهم سنة القرآن في التعاطي مع أصحاب العقائد المختلفة والمذاهب والشرائع المخالفة، (ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[16]، أضف إلى ذلك الرحمة التي وصف بها النبي صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على أن تنتشر الدعوة الإسلامية بشكل سلمي وتعمّ العالم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[17]، فإذا كان نبي هذه الأمّة رحيماً بالبشرية فيجب أن يهتدوا بهديه، وعلى أتباع سنته في مختلف الأزمنة والأمكنة أن يكونوا رحماء فيما بينهم (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانا)[18]. إنّ الشدة مع الكفار لردعهم وصدهم عن العدوان لا يعني إلغاء المفهوم السلامي في علاقتنا معهم، ولا يعني عدم السماحة في سلوكاتنا، حيث إنّ القرآن استخدم كلمات لطيفة حينما اعتبر أنّ الذي يلقي السلام يجب عدم اعتباره كافراً (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)[19]، فهو معنى على غاية من الأهمية لبناء مجتمعاتنا المستقبلية على أساس من السلام، لأننا مهما اختلفنا مع الآخرين (السلاميون) فسيوفرون دماءنا، أمّا العنفيون ولو كانوا من أعبد الناس وأتقاهم فقد يتقربون بدمنا إلى الله غداً دون أن يختلج لهم جفن، فلا أمان لهم إذن[20].

فمن العلاقة المزدوجة الرابطة فيما بيننا أخوة العقيدة والشريعة، وفي الطرف المقابل مع إخوتنا في الإنسانية، نستخلص أنّ قيمة العبودية لله ليست بالركوع والسجود، ثم الاعتقاد بالتقرب إلى الله بدماء الآخر قرباناً فقط، لأنه مختلف عنا ومخالف لنا، فهذا منهج خاطئ ومميت يحتاج إلى التقويم والمراجعة، والسبيل إلى ذلك هو إعادة قراءة أول واقعة دموية وقعت في التاريخ الإنساني، وكيف كان ندم المتسبب في الجريمة، فيتعظ ويأخذ الحكم الشرعي باستنباط أنّ سفك الدم حرام إلا بمواصفات محددة بشكل واضح من طرفه سبحانه وتعالى: (فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)[21]، والقرآن الكريم في هذا السياق يتكلم دائماً عن العنف المستعمل بطريقة سلبية ويدينه إدانة شديدة، ويتكلم عن مآلاته الرعناء في ذروتها؛ وهي إزهاق الأرواح، وإلحاق الأذى بالناس، أو إفساد الطبيعة وإهلاك الحرث والنسل»[22].

إلى جانب ما ذكرنا سابقاً، من المعلوم أنّ الإنسان بصفته حيواناً اجتماعياً هرب من حياة الوحدة والوحشة ليكون فرداً في جماعة تضمه وتأويه وتتقوى به، بعد ذلك ظهرت الدولة كياناً ينظم حاجات ورغبات الجماعة والفرد، وينظم الواجبات والحقوق ويبتدع مؤسسات تحتكم إليها العلاقات الجماعية منعاً

---

16. سورة النحل: من الآية 125

17. سورة الأنبياء: 107

18. سورة الفتح: من الآية 29

19. سورة النساء: من الآية 94

20 . سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 124

21. سورة المائدة: من الآية 31-32

22. أبوزيد، المقرئ الإدريسي، موقف القرآن الكريم من العنف، كتاب الجيب عدد استثنائي 32، الصادر عن جريدة الزمن حول: "الديانات السماوية وموقفها من العنف"، 2002م، ص 40

للفوضى وعدم الاستقرار، ضامنة لهم الطمأنينة والعيش الرغيد تحت مظلة التعايش والتسامح اللذين يتبادلهما كافة الأفراد رغم الاختلاف العرقي والثقافي واللغوي والسياسي...، فالدولة تحتكر العنف من الأفراد مقابل ضمانة الأمن لهم، والجيش والاستخبارات وأجهزة الأمن والشرطة هدفها توفير الأمن للأفراد الذين يعيشون ضمن الدولة[23]، لكنّ وضعية الاستقرار لا تدوم، فغالباً ما تعمّ الفوضى المجتمع ويعود الإنسان إلى طبيعته الحيوانية، متمرداً على النظام وآلياته ومؤسساته مبرزاً سلوكاً وحشياً في تعاملاته مع الفرد والمجتمع والمؤسسة والمفاهيم [حالات الثورات، والحروب، والصراعات والنزاعات]، ثم إنّ حالة الاستثناء ترد على السلوك البشري بين الحين والآخر، مما يجعل دور الدولة بوصفها مؤسسة قادرة على حفظ النظام والأمن يخضع للنسبية [كحالات التمرد المدني والعسكري على النظام مثلاً]، فيتبين أنّ الفرد قد لا ينضبط لمؤسسة الوازع فيها خارجي، أي أنّ انضباطه في الحالات العادية كان من جراء الخوف من العنف الذي قد تستعمله الدولة ضده، فما إن يجد الفرصة سانحة حتى يعبّر عن مواقفه المكبوتة بكل وضوح، يصل في بعض الأحايين درجة التعبير بالعنف وحمل السلاح، فكان دور المؤسسة الدينية الباعثة على تربية الفرد على استحضار الوازع الداخلي والمراقبة الذاتية، أي يستحضر أنّ هناك مراقباً خفياً يراقبه ويتتبع أفعاله (الله)، وهو غير المراقب الظاهر المتمثل في رجل القانون ومؤسساته، فيتكامل دور المؤسستين التربويتين، لتطهير هذا الإنسان من نوازعه العنفية والشريرة الكامنة فيه، فكانت مهمة الأديان هي التبشير بالإنسان الجديد، ووضع (كوابح) العنف عنده، ورد الإنسان إلى العمق الأساسي لوجوده، وتوجه الدين، ومن خلال التربية الميدانية ومنها (الصوم) الذي هو تعبير عن ضبط النفس، والوقوف عند الحدود والكف عن المحارم وسفك الدم، والذي يشكل أداة مهمة في تنمية دوافع الردع الداخلية في محاولة إيجاد حالة (السلام الداخلية) عند الإنسان الذي إن تحقق شع منه السلام الحقيقي والكامل والدائم على الكون[24].

فقد جاءت أغلب الديانات السماوية لتحفظ للإنسان وجوده، وتقيه من شرور نفسه عن طريق تهذيبه وتربيته على الأخلاق السمحة الفاضلة، ولتدعوه إلى الانضباط للقيم المجتمعية التي ستجعله يعيش في أُلفٍ وائتلاف ضمن أفراد مجتمعه، فكانت بذلك النصوص الدينية الحجر التأسيسي للأخلاق والقيم النبيلة ذات المرجعية النصية إلى جانب ما تعارف عليه الناس، وكان «رجال الدين» أو «علماء الأمّة» من أهم المتمثلين لكل ما سبق، والمؤكدين عليه بالنصح والتذكير والإرشاد في ظل المؤسسات الدينية من أديرة وكنائس ومساجد، بوصفها فضاءً للتعبد وتعلم الأخلاق والقيم السمحة. ولعل السؤال المطروح هنا هو: هل الدعوة الدينية والرسالات السماوية خلت من العنف سواء من خلال الإشارة إليه أو على مستوى استخدامه في فترة من فتراتها؟ أو بصيغة أخرى ما علاقة الأديان عموماً بالعنف؟

23. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 157

24. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 192

وللجواب عن هذه الأسئلة نظن أنه من المفروض أن نميز بين ما ورد في النصوص الدينية أو النصوص المقدّسة كيفما كان نوعها، وبين ما يمكن أن يكون جداراً مانعاً للعقل عن تجاوز محيطه «الزمكاني»، فيختلف بذلك الفكر الديني إذا أضيفت إليه أسباب أخرى؛ من مثل اختلاف أوجه التعامل مع النص باختلاف الأدوات الإدراكية، والأساليب المتبعة لاستنطاق واستنباط الأحكام والمقاصد، والنتيجة لكل تلك الاختلافات هي أنّ الحكم يخضع للظروف التي شهدت ولادته.

فعملية الاستنباط غالباً ما تنطلق من نظرة مسبقة وخلفية اجتماعية وسياسية واقتصادية -إلى حد ما-، والظرفية التاريخية تفعل فعلها أيضاً في تقييد العقل وجعله لا يتجاوز نطاق الزمان المسموح به، ليفسر النصوص الدينية بنظرة إنسانية مستقبلية صائبة، فيكاد يصبح في حكم الحقائق المسلم بصحتها أنّ الفكر البشري بما في ذلك الفكر الديني هو نتاج طبيعي لمجمل الظروف التاريخية والحقائق الاجتماعية لعصره[25]، ثم يمكن للنسق السياسي والمذهبي أن يجعلا وضعية المفسر تتأرجح بين الموضوعية العلمية في التعاطي مع النصوص وحقائقها، أو تنجرف به نحو الشرعنة والتأسيس لأحداث أو لفرق ومذاهب، بل وتزكيتها بالعمل العقلي المستنطق بشكل مباشر للألفاظ [القرآنية والحديثية]، لتبريرها وإيجاد مخارج للمآزق التي يمكن أن تسقط فيها بحكم ظرفيتها ووضعيتها، فيكون إمّا عن سابق اقتناع، أو أنّ سلطة ما جعلته يعيش في حيرة تجعله يستجيب لضغوطاتها أو إغراءاتها.

ومن خلال بعض النماذج من التفسيرات الدينية لبعض النصوص المقدّسة، يمكن أن نبرز وضعية العقل الإنساني الذي يتوحد ليشكل نسقاً موحداً بمجرد توفر النص المقدّس والواقع الخصب بالإشكالات والتساؤلات ثم الإبداع العقلي الفطن القادر على التأسيس والتنزيل والإسقاط، أي القدرة الإنسانية على الربط بين المضمون المقدّس والواقعة الحدث، حتى إنك لتعتقد أنّ سبب نزول النص إنما كان لذلك الموضوع برغم اختلاف السياق التاريخي.

1- لمحة عن الديانة اليهودية:

فلنأخذ الديانة اليهودية على سبيل المثال، التي تنتمي إلى مجال الديانات السماوية وأهلها أهل كتاب هو التوراة، فنصوص هذا الكتاب المقدّس كثيراً ما تكون عرضة للتفسيرات المتطرفة التي تستهدف الاستجابة للظرفية الراهنة، حيث إنّ الحركة الصهيونية التي تعرف نمواً قوياً ومتزايداً؛ أسست جلّ مشاريعها وتخطيطاتها انطلاقاً من نصوص التوراة، التي تقترب من أن تكون فيها القابلية للاستجابة للتطورات السياسية والآيديولوجية والعسكرية، بحكم التدخل البشري في وضع النصوص، تحت شعار واسع هو خدمة الشعب اليهودي «شعب الله المختار».

25. الركراكي، سعيد، "ظاهرة العنف من منظور سوسيولوجي"، المنطلق الجديد، عدد 06 شتاء ربيع 2003، ص 131

فالنص التالي يحكي لنا المعاملات التي يجب أن يعامل بها المنتصرُ اليهودي المنهزِمَ من أبناء الشعوب المعادية لهم، وقد أخذت الحركة الصهيونية على عاتقها تطبيق هذا الجانب من المعاملات، وجعلت نصب عيونها مثل هذه النصوص دعامة أساسية للاسترشاد والتوجيه [إذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً إلى السلم، فإن أجابتك وفتحت يكن جميع الشعب الذي فيها تحت الجزية ويتعبدون لك، وإن لم تسالمك وحاربتك فحاصرتها وأسلمها الرب إليك إلى يدك فاضرب كل ذكر بحد السيف، وأمّا النساء والأطفال وذوات الأربع، وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك، وكل غنيمة أعدائك التي أعطاها الرب إلهك][26]، ومثل هذا النص وغيره من النصوص أصبحت مرجعاً هاماً وقانوناً ومصدر إلهام ووحي للقادة الصهاينة[27]، الذين يطبقون وعد الرب «الإله يهوه» قديماً، الذي أوحى إليهم بالتدمير والقتل والإفساد بحسب زعمهم، وحديثاً تتكرر القصة نفسها في فلسطين خاصة، فالربّ اصطفاهم على غيرهم من البشر...!، وفضل جنس العبرانيين بأن سماهم شعب الله المختار الذي يستعبد كل ما دون هذا الجنس البشري [أسير بينكم وأكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي شعباً][28]، ولأنّ يهوه[29] صرح لهم بقوله [لأنك شعب مقدّس للرب إلهك، قد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً على جميع الشعوب التي على وجه الأرض][30].

وتستمر مثل هذه التفسيرات الشاذة التي تجمع علاقات اليهودي بالغير، الذي يوصف بأنه من «الغوييم»[31] ذي الروح الشيطانية المخلوق من نطفة حصان، فكل نظرة إلى الجنس الآخر غير ذي العقيدة اليهودية تكون نظرة استصغار واحتقار بناء على النصوص السابق ذكرها، والغريب في الأمر أنه رغم الاصطفاء الإلهي لهم –إن صدقنا بذلك- فإنهم لم يشكروه ولم يبرهنوا على حرصهم على عبادته، بل تمردوا على الوصايا والأوامر والأنبياء والرسل الذين لهم علاقة بالشعب اليهودي، وجاوزوا كل الحدود في علاقتهم مع إلههم بادعاء تصحيح الأخطاء التي يقع فيها، وهو اعتقاد لدى اليهودي يُسمى عقيدة «البداء» وهي أنّ الربّ يخطئ فيصحح له الحاخامات، ومن أخطائه خلق أبناء إسماعيل وسيصحح الخطأ بإبادتهم أجمعين حسب قول الحاخام الأكبر الإسرائيلي لليهود الشرقيين[32]، بعد أن طرح ذلك في الصلاة، للأسف، على الرغم من أنّ الصلاة هي أجمل تعبير عن توحد الفطرة الإنسانية نحو وجهة خالق الإنسانية، وخاصة أنّ الرسالة اليهودية

---

26. سفر التثنية 10/20

27 . عماد، عبد الغني، "جدلية العنف والدين في الفكر التوراتي"، مجلة الحياة الطيبة، عدد 9 س 3 ربيع 2002، ص 101

28. سفر اللاويين 12/26

29. ليست كلمة ولا هي مسمى في القراءة اللاتينية للأحرف العبرية الأربعة ي-هـ –و- هـ "التي ذكرتها التوراة كرمز للإله، وهنالك محاولات عديدة لتفسير هذه الرموز بإرجاعها إلى كلمات ذات معنى، والمهم أن نلاحظ أنّ اليهودي عندما يأتي إلى هذه الرموز في قراءته للتوراة لا يلفظها يهوه بل يعتبرها رمزاً للدلالة فيلفظها أدوناي بمعنى الرب"، انظر: أصول الصهيونية في الديانة اليهودية، الفاروقي، اسماعيل راجي، مكتبة وهبة، مصر 1988، ص ص 11-12

30. سفر التثنية 2/14

31. غوييم كلمة عبرية على صورة الجمع مفردها "غوى" استخدمها العبريون بمعنى الحشرة التي تزحف في جموع كبيرة وقد خصصتها العنصرية اليهودية قديماً للإشارة إلى الناس من غير بني إسرائيل، للمزيد حول استخدامات الكلمة في العقيدة اليهودية انظر: "جدلية العنف والدين في الفكر التوراتي"، مرجع سابق ص 97، و"موقف القرآن الكريم من العنف"، مرجع سابق، ص 50 وما بعدها.

32. انظر: "موقف القرآن من العنف"، مرجع سابق، ص 50

تشترك مع غيرها في وحدة المنبع، وأيضاً كل الديانات السماوية في شكل الكتب المنزلة التي يتلوها أبناؤها أو معتنقو إحدى هذه الديانات يعترفون بقدسية كل رسالة لارتباطها بوحي السماء، لكنّ التفسيرات اليهودية تستبعد بتصورها الخاطئ لمفهوم التدين المبني على أفضلية الجنس المختار كل تلاقٍ أو حوار، فالعنف مجسد ضد الآخر بصفته أمراً دينياً وإلهياً له أساس عقدي، لأنّ الإله يهوه يقول: [أقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين...][33]. والخطير في الأمر تلك الرابطة بين الدين والعمل العنيف، لأنّ تفسيره يعني أنّ الإنسان المتدين يبحث في الفكر الديني لينسج رابطة بين السلوك المشين والعنيف ليدعمه بنص مقدّس، ثم يؤسس لعنف يستند إلى الدين فيضفي عليه صفة الشرعية بكل ما للكلمة من معنى، والعنف في الصهيونية ما هو إلا نموذج لتفسير النص التوراتي الذي يختزن العنف، بحيث إنّ عبارات القتل والإفناء والاستئصال تتكرر في الأسفار التوراتية عند كل حديث عن احتلال مدينة أو قرية أو بلدة وتعدد التوراة عدد الملوك الذين قتلهم «يشوع» وأفنى شعوبهم[34]، فيكون السلوك الذي لا يقبله عقل ولا منطق إنساني سلوكاً قبيحاً ومستهجناً وبعيداً كل البعد عن الأخلاقيات المتعارف عليها إنسانياً، فلا يمكن تبريره ولا شرعنته بأي شكل من الأشكال العلمية المؤسسة على دليل عقلي مقبول، بيد أنّ المنطق الديني يستبطن أدوات أخرى تجعل المتعامل والمحتك به مؤمناً بالفكرة التي هو مقتنع بها سواء كانت صحيحة أو خاطئة، المهم أن يجد لها عمدة قوية في النص المقدّس ليؤسس له بها سلوكه ثم قناعاته، كذلك الأمر فيما يخص المعتنق للدين اليهودي ففعله وسلوكه يتغذيان بحيوية من الفكر الديني اليهودي التوراتي، إنه ليس حالة مؤقتة واستثنائية عارضة، وليس رد فعل على معطيات اقتصادية أو سياسية، أو اجتماعية طارئة[35] بقدر ما هو تفعيل لمعتقدات مترسخة ومتجسدة في سلوكات يومية تتكرر أمام أعيننا بشتى الصور على شاشات القنوات العربية والدولية وبشكل «دراماتيكي سيزيفي»[36]، وفي كثير من البقاع العربية والإسلامية، وعلى وجه الخصوص في فلسطين المحتلة والعراق المستعمرة وباقي البلدان العربية المضطربة، وهذا العنف إنما هو عنف مؤسس جماعي، يمارس عن طريق مؤسسات رسمية منظمة ومحتكمة إلى دراسات وتخطيطات محددة في كل خطوة من خطواتها تدشن بها عملياتها.

وفيما يخص العنف الفردي المستند إلى قناعات دينية، فيمكن أن نمثل له بما قام به باروخ كولد شتاين الطبيب الأمريكي الصهيوني المهاجر إلى إسرائيل والمنضوي تحت لواء اليمين الإسرائيلي الأكثر تطرفاً بين المستوطنين اليهود، الذي حمل سلاحه الرشاش في 25 فبراير 1994 الموافق لأحد أيام رمضان، وليوم

33. انظر التحليل المفصل لعلاقة العنف بالفكر التوراتي، في: "جدلية العنف والدين في الفكر التوراتي" مرجع سابق، ص ص 97-110

34. المرجع نفسه، ص 103

35. انظر: "جدلية العنف والدين في الفكر التوراتي"، مرجع سابق، ص 105

36. سيزيف: شخصية في الأسطورة اليونانية، حكمت عليه الآلهة بحمل صخرة على ظهره والصعود بها إلى أعلى قمة الجبل وكلما حاول ذلك يأخذ منه التعب مأخذه فتسقط الصخرة متدحرجة إلى أسفل المنحدر، فيعيد العملية ثانية وثالثة...، وهكذا في محاولات عبثية، وكثيراً ما يراد به التدليل على عمل لا فائدة منه ترجى.

العيد اليهودي «البوريم»، ليدخل إلى المسجد الإبراهيمي مطلقاً النار على عدد من المصلين المسلمين الذين كانوا يؤدون صلاة الفجر، وليقتل 29 مصلياً قبل أن يتمكن منه بعض المصلين ويردوه قتيلاً. هذا فضلاً عن عملية اغتيال الوزير الأول لإسرائيل إسحاق رابين في 4 نونبر 1995 من طرف الشاب إيبغال أمير المنتمي إلى تنظيم يميني متطرف والذي أطلق النار على الوزير رابين فأرداه قتيلاً، ليتم بعد ذلك اعتقاله، ومن ثم الحكم عليه من طرف محكمة بقضاء تل أبيب - يافا في 27 مارس 1996 بالسجن المؤبد بسبب القتل، وبست سنوات أخرى لتسببه في إصابة أحد مرافقي رابين بجروح بليغة، وهما حكمان ينفذان تباعاً[37]. وتقول الباحثة شارلوت إليشفافون روبيرت معلقة على الحادثين: «إنّ جريمتي القتل هاتين متوازيتان من حيث إنهما ارتكبتا من طرف يهوديين متدينين باسم التوراة، كما يفهمانها حيث اعتبرا ضحاياهما من أعداء الشعب اليهودي ورأيا فيهم تهديداً له»[38]، ولتستمر شارلوت في تفسيرها للعلاقة بين عملية «كولد شتاين» والعيد اليهودي لتستنتج استغلال المتطرف باروخ كولد شتاين لرمزية العيد للتأكيد على دلالة عمله، أمّا المتطرف «أمير» فقد عمد إلى إجازة عمله شرعاً على أساس الشريعة اليهودية، أي أنّ أيّ برهان أو خلاصة مبنية على تفسير شرعي تكون أكثر نجاعة[39].

2- لمحة عن الديانة المسيحية:

أمّا المسيحية، الديانة السماوية الثانية، فقد عرف نبيها عيسى عليه السلام بأنه نبي المحبة والإخلاص لمبدأ السلام (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)[40]، جاء ليخلص بني إسرائيل والإنسانية على وجه العموم من بطش الرومان، الذين بلغت بهم القسوة إلى الاستمتاع بالقتل والدماء في ساحات مخصصة، إلى جانب ذلك تعددت أشكال تنكيلهم بالشعوب التي ترفض الانضواء تحت لوائهم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تعرض اليهود للتوراة بالتحريف وانسلخوا عن الطريق التي رسمها موسى لبني إسرائيل، فقد أصبحت هذه الطائفة حريصة على القيم المادية أكثر من حرصها على القيم الروحية الإيمانية، فكان عيسى عليه السلام بمثابة المصحح للعقيدة والمرشد إلى القيم الدينية الحقيقية (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)[41]، وقوله سبحانه وتعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ

37. انظر: إليشيفافون روبيرت، شارلوت، "اليهودية والعنف"، منشورات الزمن عدد استثنائي رقم 32 حول الديانات السماوية وموقفها من العنف، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 2002، ص 148

38. نفسه، ص 149

39. لتوضيح العلاقة التي تجمع بين النص المقدّس والسلوك العنيف في العقيدة اليهودية بتفصيل أدق وخاصة فيما يتعلق بعمليتي المتطرفين كولد شتاين وأمير. انظر المرجع السابق نفسه، ص 147 إلى 162

40. سورة مريم: 33

41. سورة الصف: من الآية 6

وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)[42]، وقد أكد المسيح عليه السلام على هدف رسالته أيضاً في الأناجيل بقوله في إنجيل متى: «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»[43]، وبذلك يكون بنو إسرائيل هم المستهدفون الأوائل، وهذا لا ينفي دور المسيحية بوصفها رسالة سماوية في بلورة قيم وأخلاق تهم الإنسانية عامة، وتقدم الأسس العقدية والأفكار الدينية التي تلخص بعضاً من رسالتهم، وأنا أخص بالذكر علاقة النص الديني المسيحي مع الغير أو الآخر الذي ينتمي إلى ملة أو ديانة مخالفة، على أننا غالباً ما نستحضر القيم المسيحية متسامحة مع العقائد الأخرى، وهذا المعطى يأتي بناء على ما نشاهده في العصر الحاضر من انفتاح وتسامح في المجال الغربي المسيحي مع أغلب الثقافات والقيم الوافدة عليه، وهذا لا يعني ألا نستحضر بعض الإشكالات والتساؤلات التي يمكن أن تبرز لنا بشكل أو بآخر، مدى صحة ما نعتقده، وأعتقد أنّ أول هذه الإشكالات المطروحة على الفكر الديني المسيحي هي: إلى أي حد يمكن لنصوصهم المؤسسة للسلام والتسامح أن تبقى صامدة في وجه الحروب الصليبية قديماً وحديثاً، وتمنع عودة الصراعات المحتدمة باسم الدين في المستقبل؟ وهل النصوص المقدّسة المسيحية تختزل فقط قيم التسامح والسلم، أم أنها تحتوي كغيرها على جانب من النصوص التي تدعو إلى العنف؟ وأخيراً، إذا اعتبرنا -تجاوزاً- أنّ المسيح عليه السلام والرسالة المسيحية جاءت بالسلام للإنسانية، وأنّ الأناجيل بمختلفها تؤسس لتلك الثقافة، فكيف يمكن لنا أن نفسر الحروب التي دشنت في التاريخ المسيحي ضد الذات وتم أغلبها باسم الدين، أو التي كانت ضد المسلمين وسميت بالحروب الصليبية؟

إنّ اعتبارنا لهذه الرسالة الثانية في الترتيب يأتي فقط انطلاقاً من التسلسل الزمني، وإلا فهي الأولى من حيث الاتباع، ثم يأتي الدين الإسلامي لها في صف المنافسة والترتيب[44]، وجانب العالمية في هذه الرسالة يعني أنها تؤسس مع الديانات الأخرى للقيم المشتركة النافعة للإنسانية، لأنّ البعض ما يزال يناقش قضية عالميتها من الناحية العقدية[45]، والأحرى هو التحول عن ذلك لمناقشة الكيفية التي يمكن بها أن نضع لنا أرضية حوارية مشتركة، لنصنع مستقبلاً يقبل بالآخر وبالتعايش معه، بناء على المصلحة والمشترك الإنساني، خاصة وأنّ هذا العصر يشهد صراعات وأحقاداً قد تجرف بالكل إلى إعادة حركة التاريخ القهقرى للعيش في عصر حروب دينية جديدة، ولكنّ إيمان علماء الديانات السماوية وحكمتهم منعتهم من الوقوع في

42. آل عمران الآيات 45-46-47-48-49

43 . إنجيل متى إصحاح 15 عدد 24

44. هناك بعض الإحصائيات التي تؤكد أنّ المسلمين يبلغون 865 مليون نسمة مقابل 850مليون كاثوليكي، ولكنها لا تخلو من الارتياب نظراً لصدورها عن أحد المعاهد المتخصصة في الإسلام بالفاتيكان الذي يمكن أن يبتغي من وراء ذلك التخويف وخلق حالة الفوبيا من ازدياد عدد المسلمين، انظر: السبتي، مخلص، الصحوة الإسلامية بالمغرب، الأسس المعفية وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.الأولى 1995، ص ص 8-9

45. على سبيل المثال: يناقش المستشار محمد عزت الطهطاوي: قضية عالمية الرسالة المسيحية ويرفضها بناء على المعتقد الإسلامي، ويستشهد على خصوصية تلك الرسالة بنصوص من الإنجيل والقرآن، وللمزيد يراجع كتابه: الميزان في مقارنة الأديان، دار القلم، دمشق الطبعة الثانية سنة 2002م، ص ص 285 -291

تلك الأخطاء والمخاطر، إذ تفطنوا لذلك فأسسوا لما يسمونه بحوار الأديان، الذي تستضيفه مجموعة من العواصم العربية والعالمية[46].

وهذا يدل على الدور الكبير الذي يمكن أن تلعبه الديانات في الاستقرار العالمي، كما يمكن أن نستنتج منه أيضاً دور علماء الدين في توجيه أتباع كل ديانة إلى وجهة الصدام بحسب الظروف والضغوطات المطروحة عليهم، أو توجيههم نحو التوجهات العالمية الجديدة لبلورة حوار شامل، والسعي لخدمة الفضيلة المجردة، وهذا دليل أيضاً على أنّ النسق والوجهة العامة هي المتحكمة تاريخياً في تحركات رجال الدين، لأنّ الحروب التي دشنها الغرب المسيحي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت بمباركة الكنيسة، إذ إنّ البابا أوربان الثاني أشار في إحدى مواعظه في الحروب الصليبية إلى أنه من الواجب على الفرسان اللاتينيين أن يقوموا بغزو الشرق من أجل المسيحية؛ باعتبار أنّ هذا الغزو هو الشرط اللازم قطعاً الذي يتوقف عليه مجيء المسيح الدجال، مما سيفتح المجال لعودة المسيح الحقيقي إلى الأرض.

ومن خلال ما تقدم، فإنّ دور علماء الدين ورجاله، غالباً ما يؤسسون مواعظهم كما يحتكمون في أقوالهم وفتاواهم إلى النص المقدّس الذي هو في الأساس توجيهات ونواهٍ وأوامر مقدّسة بالنسبة إلى الأتباع، ليتم بناء الشرعية عليها[47]، فمثلاً رجال الدين الأرثوذوكس يتبنون الحرب بعد مباركة الجنود الروس الذاهبين إلى ساحات المعارك. أمّا الكنيسة البروتستانتية فهي تتبنى العنف وتعتبره- كما هي حال الثقافة الأمريكية- مشروعاً بناء على العهد القديم. وأمّا في الكنيسة الكاثوليكية فالدفاع عن النفس مشروع[48]؛ أي أنّ كل اجتهاد له أساس نصي، فالعنيف يستقي ويتغذى من فعل المسيح عندما استخدم العنف ضد التجار وطردهم من الهيكل بالسوط، وهناك من يأخذ بالعهد القديم -رغم أنّ هناك من يرى في المسيح النموذج ويتمثل قيم «العهد الجديد» الإنجيل-، وقصص الأنبياء الذين أخرجوا بالقوة وقتلوا قبائل (يوشع بن نون الذي قتل عشرين ألفاً في أريحا) وربما بأكملها، فيكون هذا الفعل المنصوص عليه بمثابة دليل على شرعية العنف حالياً، ثم يأتي من يبني شرعية التسامح والمحبة على ما قاله المسيح في خطبته على الجبل: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، أمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً...، سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، أمّا أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم»[49]، ومع

46. من أهم المؤتمرات أو الندوات التي تخص حوار الأديان والتي شهدت نقاشاً وحضوراً مهما كانت: مؤتمر دولي عن العالم الإسلامي وأوروبا من الحوار إلى التفاهم المنظم في بيروت بين 17-19 فبراير 2004، وندوة عن الحوار بين الأديان في جنيف شهر يونيو 2004، والمؤتمر الذي عقد في شهر يناير 2005 في بلجيكا حول مائة إمام ...، وغيرها.

47. بيك، فيليب، "عنف ورعب بالفضاء الثقافي المسيحي الغربي"، ترجمة: محمد بن الشيخ، منشورات الزمان عدد 32 كتاب الجيب ص 123، وقد جاء فيه العلاقة الرابطة بين النظرية الدينية والعنف والتاريخ، فلينظر بخصوص ذلك ص 142

48. لمزيد من الاطلاع على علاقة العنف بالدين على ضوء الفكر المسيحي، وموقع المذاهب المسيحية من هذه الجدلية (الدين/العنف)، انظر: حوار الأب جورج مسوح – مدير مركز الدراسات الإسلامية المسيحية في جامعة البلمند – لبنان حول "الدين والعنف رؤية على ضوء الفكر المسيحي"، مجلة الحياة الطيبة، ع 9 س 3 ربيع 2002م، ص 27إلى 36 (بتصرف).

49. إنجيل متى، الإصحاح 5عدد 38

ذلك فكلّ الديانات يمكن تبرئتها بشكل من الأشكال من جميع ما يمكن أن يلتصق بها من عقائد سلبية وأفكار هدامة، وكذلك الديانة المسيحية -كما يقول توفيق الطويل في مؤلفه: قصة الاضطهاد الديني- فهي بريئة من تبعات الدم الذي أريق باسمها والنفوس التي أزهقت من أجلها ومن أجل المسيح[50]، حيث إنّ المشكل ليس في النصوص المنزلة بذاتها، بقدر ما هو في العقول التي تتعامل معها، وغالباً ما يكون هذا التعامل متقاطعاً مع ثقافة سلبية ونوازع منحرفة مستبطنة، مما أدى ببعض الديانات إلى الانحراف عن المنهج الرباني، وببعضها الآخر إلى معرفة مذاهب شاذة عن الأصول الاعتقادية العامة.

3- لمحة عن الديانة الإسلامية:

أمّا الإسلام في تنزلاته الأولى بمكة المكرمة، فقد بدأ بنهج سبيل الدعوة السلمية ونسج علاقة مع الطرف القرشي المعارض للدعوة الجديدة بالحوار والجدال بالتي هي أحسن، مع تركيز جهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة على توصيل الرسالة الإسلامية والخطاب الجديد، الذي هو في الأساس النص القرآني المبني بالألفاظ العربية المألوفة، والمدركة بالسليقة القرشية، ليشكل معاني متجسدة وقوية تجاوزت حمولته المعنوية والقيمية والبيانية في بعض الأحيان كل ما كان معروفاً عند بلغاء العرب، فكانت الصدمة الأولى للمجتمع القرشي، خاصة المتولية للقيادة الثقافية والسياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، صدمة كفيلة بنقض الثقافة والبنى الراكدة التي نزل فيها الوحي، وجعل يطرح البديل عن بعض المظاهر الحياتية المركبة (العبادة، العقيدة، العلاقات الاجتماعية والمالية، ...) فبدأ التحدي يواجه أصحاب هذه الرسالة، متجسداً في امتحان قدرتهم على الاستمرار في نهج الأسلوب نفسه في علاقتهم مع كفار قريش المتطرفين، الذين شعروا بقوة المولود الجديد وقدرته على زلزلة وقلب الأوضاع عليهم بشكل جذري، وسحب بساط السلطة -بمختلف أشكالها- من أيديهم، ليقوم القرشيون من جانبهم باعتبارهم سادة المجتمع والجبهة المعارضة لفكرة الدين الجديد – شكلاً ومضموناً – بتصعيد قوي لمختلف محاولاتهم الوحشية لردع المتعاطفين والمعتنقين له، إلا أنّ النبي عليه السلام وصحابته من جهتهم قابلوا هذا العنف بأفعال سلمية، فتعاملوا مع الوضع المتأزم برفق ولين وصبر، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم صابراً محتسباً، رغم الأذى الذي يتعرض له من طرف بعض المشركين، ومن طرف بعض كبار رؤوس الكفر منهم كابن أبي معيط، الذي خنقه خنقاً شديداً مرّة، وقذفه مرّة أخرى بسلى جزور على ظهره وهو ساجد، وكذلك فعل أبو جهل بن هشام[51].

لم يكن حال الصحابة مع المشركين أحسن من حال النبي صلى الله عليه وسلم، فقد واجه بلال رضي الله عنه التنكيل والعذاب في رمال مكة الملتهبة، مستمداً قوته وصموده من تكرير كلمتين تختزنان كل عقيدة: «أحد، أحد»، كافراً بآلهة سيّده أمية بن خلف، ونالت السيدة سمية من آل ياسر رضي الله عنهم تحت التعذيب

50. الطويل، توفيق، قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1981، ص 172

51. البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية، دار الفكر دون تاريخ، ص ص 77-78

شرف أول شهيدة في الإسلام[52]، فكان هؤلاء وغيرهم في الصف الأول للمواجهة ضد الطغاة والمتنفذين في السلطة القرشية المتجبرة والجامدة، وغير القابلة لأي تغيير أو حوار يخص الموروث من «الفكر الأبوي المتخلف»؛ [عقيدة الشرك، عقيدة القتل والسلب، التسلط والاستبداد، الفكر الذكوري الفج والمتحكم في مصير حياة الجنس الأنثوي في ظل ثقافة الوأد ...] الذي لا يستند إلى أية مشروعية غير (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)[53].

كان التعنت والتكبر سمة طبيعية مرتبطة بجاهلية العرب وعقائدهم الوثنية، مما جعلهم يرفضون أي عملية تجديدية لمعتقداتهم أو عاداتهم الاجتماعية والأخلاقية، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته قد تمكنوا بقوة ثباتهم وتمسكهم بمبدئية العمل السلمي، في ذلك الوسط المتفجر عنفاً وإلغاءً للمخالفين، من إيصال رسالتهم إلى قاعدة واسعة من القبائل العربية، وإلى أبناء المجتمع القرشي فكسبوا تعاطف الكثير منهم، بل ازداد عدد المؤمنين بسمو دعوته المعتنقين لهذه الرسالة[54] التي انتشرت تعاليمها ضد مواجهة أعدائها بكل سماحة، دون أن يراق دم أحد من العاكفين على الأصنام والأوثان، فقط لأنّ الإسلام أسس لمبدئية جديدة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[55].

فإذا كان هذا حال الديانة الإسلامية منذ البدء، وهي التي أسست على التسامح والحوار ونبذ العنف في السلوك، وتربى ضمنها أجيال الصحابة في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم على تلك المبادئ وضحوا من أجلها، فما الذي تغير اليوم حتى تسال دماء المسلمين وغيرهم بأيدي من نظن أنهم ما يزالون في دائرة الإسلام؟ فما الفرق بين الأمس واليوم، إذا كان الدين واحداً؟ وإن كانت هناك حوادث مأساوية سلكت بالتاريخ الإسلامي غير سبيل النهج الأول، فهل سنزكي بوقائع وأحداث أمس ما يرتكبه بعض منا في العصر الحاضر؟ وهل للفكر الديني الإسلامي دور في منع أو في تأجيج أعمال العنف؟

ولنا وقفة اعتبار وتدبر عند الدعوة المكية، وكيف أسست في الحقيقة تصوراً جديداً لسُنَّة التغيير السلمي للتجمعات البشرية، وكيف أسس القرآن الكريم لرؤية متكاملة للتغيير؛ بناء على نصوص تترابط وتنسجم وأفهام وسلوكات وتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، الذين عملوا على تمثلها على أرض الواقع، مما يؤكد أنّ الإسلام صالح لكل زمان ومكان، بشرط أن يكون له رجال يحملونه عقلاً وضميراً، ويفهمونه في إطار عالمية رسالته وشمولية رحمته، والمهم هو أنّ بعض من استفادوا من مناهج التغيير من منظور إسلامي، ولو أنهم غير مسلمين، عملوا على تطبيق هذه الرسالة وتنزيلها منزل الممارسة [غاندي، ومارتن لوثر كينغ ومانديلا...] فنجحوا في أن يكونوا المتصدرين لحركات التحرير والتغيير السلمية في

52. خليل، عماد الدين، دراسات في السيرة، دار النفائس، ط 1، 1997، ص 746

53. سورة الزخرف: من الآية 22

54. كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وإسلام عمر بن الخطاب أثر كبير على مسار الدعوة.

55. سورة الكافرون الآية 6

العصر الحاضر، وكيف لا يكونون كذلك وقد تأثروا بأعظم قائد في التاريخ الإنساني، قائد الحركة المدنية والرسالة السلمية عليه الصلاة والسلام، في وسط صحارى الجزيرة العربية، المشيد لأبرز حضارة استفادت منها وما تزال البشرية في أحلك ظلماتها، مادام أجيال الإيمان بالرسالة المحمدية يحملون مشعلها سائرين نحو التجديد والإبداع والتغيير السلمي، في مختلف المجالات الروحية والفكرية والحضارية وفي كل عصر وحين، مقتدين بنهج قائدهم، خاتم الأنبياء والمرسلين، نابذين خلف ظهورهم الأفكار العنفية الشاذة والمدمرة، التي تصد عن الإسلام دين السلام، وتغلق أمامنا باب قيم التسامح واللاإكراه.

ارتأيت في هذا المدخل أن أقدم رؤية عامة وشاملة بقدر المستطاع، عن علاقة الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلام) بالعنف، باحثاً عن بعض النصوص التي تظهر لها صلة بمؤسسي مبدأ العنف ومعتنقي مبدأ التسامح والسلم.

وإيماناً منا بأنّ أغلب الأديان التوحيدية إنما جاءت لتخلق حالة السلم والاطمئنان لدى الإنسان، وأنه رغم وجود نصوص دينية ومقدّسة تدعو إلى العنف كمبدأ سلبي، وإلى السلم كمبدأ إيجابي، فإنّ المؤمن هو الذي ينطق بهذه النصوص، ويتمثلها فكراً وسلوكاً، باجتهاد وتأمل وتفاعل معها، وكل ما يصدر عن هذا المؤمن إثر هذه العمليات هو نسبي يحتمل الخطأ والصواب، ولو تمّ إضفاء طابع القداسة عليه، وتبقى كل الديانات السماوية في أصلها بمنأى عن غرائز واندفاعات وتفسيرات الجنس البشري، الذي تتجاذبه نفسية الخير والشر.

أخيراً، نؤكد أنّ ما قدمناه من لمحة عن الديانة الإسلامية كان مدخلاً تأسيسياً ومبسطاً، على أن تتم مناقشة إشكالية المبدأين ـ العنف واللاعنف ـ، والإجابة عن الأسئلة المرتبطة بهما داخل النسق الإسلامي في المباحث المقبلة، إن شاء الله.

المجتمع الإسلامي والعنف، مدخل إلى قراءة الأصول المؤسسة والتجربة التاريخية

تعيش الإنسانية في العصر الحاضر قلاقل واضطرابات مخيفة تمس تماسك واستمرار العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان، بل العلاقات بين الدول، والعنف هو المصدر الأساسي لهذا التوتر والقلق، إنه يهدم القيم ويخرب المدنية والحضارة، ويجعل الإنسان يعود إلى حالته الحيوانية المجردة من العقل والتعقل، ولا يمكن الفصل بقول فصل في علاقة العنف بالإنسان انطلاقاً من زاوية علمية ومعرفية وحيدة، ولكن بالاستعانة بباقي العلوم يمكن دراسته كظاهرة فكرية وثقافية واجتماعية وسلوكية مرتبطة أو مصاحبة للإنسان ومجتمعه.

1- طبيعة العلاقة المنسوجة بين العنف والمعتقد الديني

كثيراً ما يحصر الباحثون في أسباب وملابسات العنف ما يقع من عمليات إرهابية (تفجيرات، اختطافات، قتل ...) في فاعلين ومتورطين متدينين ينطلقون في نشاطاتهم من نصوص دينية. وعلى هذا الأساس اتجه بعض المتطرفين من الساسة الغربيين بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن والمعروفة بأحداث 11 شتنبر إلى توجيه اللائمة نحو العالم الإسلامي لاحتضانه تيارات تتبنى العنف والتطرف، خاصة أنّ المتورطين في تلك الأحداث الدامية هم من جنسيات إسلامية وعربية مختلفة، وأغلب الناشطين والمتبنين للعنف ينتمون لجماعات ولحركات تتبنى النهج نفسه في علاقاتها مع القوى الوطنية والدولية: (جماعة الهجرة والتكفير، تنظيم القاعدة، الدعوة والقتال، أنصار الشريعة، «داعش»...)، فكان كل ذلك سبباً في تداول النقاش حول ظاهرة العنف في «النسق الإسلامي»، فتم غض الطرف - بشكل أو بآخر- عما يحتضنه النسق الثقافي والفكري والاجتماعي والديني المسيحي – اليهودي. فقد استمرت الدراسات المهتمة بهذا الجانب الخطير من الأحداث المرتبطة بالسلوك الإنساني في استعمال مختلف المصطلحات التي لا تعبر في أغلبها عن مفهوم واضح وموحد، لضرب حركات التحرير والمقاومة في مختلف بقاع العالم الإسلامي على وجه الخصوص، بذريعة كون أهداف تلك الحركات موحدة تحت يافطة جامعة «الإرهاب والتطرف»، فتم التوظيف والاستغلال الأيديولوجي المقيت لمختلف الأحداث المأساوية التي شهدها العالم بشرقه وغربه، وبخاصة أحداث الحادي عشر من أيلول 2001م كسلاح قاتل وفتاك لوضع أي فرد أو جماعة أو حركة أو دولة في القائمة السوداء للإرهاب.

2- مدخل اصطلاحي ومفاهيمي

عندما نستحضر العنف كمفردة، لها مفهومها المتداول في حياتنا اليومية، نجده يتخذ عدة أشكال، من عنف الشارع والعنف الموجه ضد النساء، وعنف وسائل الإعلام، وعنف الدولة، وعنف الطبيعة، وعنف الإنسان...، إنه يتمركز في مستويات متعددة، ونجد أنّ تعريفه كمفردة موحدة يختلف في نهاية المطاف بحسب الإضافة، فهو الخرق بالأمر، وقلة الرفق به، والإنسان العنيف هو الذي لم يكن رفيقاً في أمره[56].

وعرّفه الشيخ يوسف القرضاوي بأنه استخدام الشدة والغلظة في غير وضعها، أو في غير أدائها، أو بأكثر مما يلزم أو بغير حاجة إليها أو دون ضوابط استعمالها، ولاحظ أنّ مادة (ع ن ف) لم ترد في القرآن الكريم، لا مصدراً، ولا فعلاً، ولا صفة[57].

56. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: مادة "عنف"، دار صادر بيروت.

57. القرضاوي، يوسف، "المسلمون والعنف السياسي ... نظرات تأصيلية"، مجلة الكلمة، عدد 43 س 11 ربيع 2004

أمّا الشيخ محمد مهدي شمس الدين فقسّم العنف إلى مشروع وغير مشروع، معتبراً أنّ المشروع من العنف للمسلم مشروط بالدفاع عن النفس، لكنه يأتي في المرتبة الثالثة من المشروعية، في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد استنفاد وسائل الإقناع الأخرى.

ويقسم طلال عتريس العنف بدوره إلى نوعين: عنف سلبي وآخر إيجابي، أما الإيجابي فموجود على مستوى علاقات الإنسان مع الإنسان في المجتمع، لأنّ القوانين والتشريعات تتضمن عنفاً رادعاً، تختزنه عقوبات الردع والاعتقال والسجن ...، أمّا العنف السلبي فهو الذي يتجاوز حقوق الفرد والمجتمع، وسببه إطلاق العنان لشهوات الانتقام وحب الرياسة، إنه بمعنى الطغيان[58].

أمّا الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن فقد قسّم العنف الممكن حصوله في نطاق الحوار إلى عنف أشد، وقد يسمى بالقمع؛ والمقصود به إنهاء الاختلاف بين المتحاورين بواسطة القوة، معلوم أنه لا شيء يضاد الحجة مثل القوة. فحيث لا يوجد البرهان، لا يمكن أن يوجد إلا السلطان، والعنف الأشد هو نفسه على ضربين اثنين: عنف مادي تستخدم فيه قوة اليد بإلحاق الأذى الخَلْقي (بفتح الخاء)، وعنف معنوي هو الذي تستخدم فيه قوة اللسان لإلحاق الضرر الخُلقي (بضم الخاء). والقسم الثاني: العنف الأخف، وأسماه بالحسم، والمقصود به هو فض الاختلاف بواسطة تحكيم جانب ثالث، لعدم القدرة على فض الاختلاف، ووصفه بأنه عنف فيه لطف[59].

يرى علماء الاجتماع أنّ العنف هو سلوك إيذائي قوامه إنكار الآخر كقيمة مماثلة للأنا أو النفس، كقيمة تستحق الحياة والاحترام[60]. إنّ كل نفسية تتوفر فيها القيم السابقة السلبية، إنما هي نفسية متأزمة تعيش حالة الضغط من جراء ما يجري حولها وفي محيطها الاجتماعي والسياسي والديني...، نفسية تبحث عن نوافذ التفريغ أو الراحة، وقد تكون تلك المنافذ هي التطرف، والإرهاب، والفاشية والتعصب.

وبالجملة فإنّ العنف من أهم الوسائل غير المشروعة لإعادة التوازن الداخلي بعد تفريغ الشحنة الداخلية، وبذلك يصبح العنف بمجمله ظاهرة ملازمة للسلوك الإنساني، وليست ظرفية أو مؤقتة. وقد اهتمت مجموعة من الدراسات بالبحث في موضوع العنف، فاختلفت من حيث زوايا تناولها له، من نظرية ألوهية يعتقد معتنقوها أنّ كل نكبة كالحروب مثلاً إنما تستمد جذورها من قوى فوق بشرية، ويمكن إبطال وتهدئة غضبها بتقديم الضحايا والقرابين، ونظرية اقتصادية ماركسية تعتبر أنّ الحروب هي نتيجة مقتضيات النمو الرأسمالي، ونظرية سيكولوجية تعتبر أنّ الحروب قد تنتج عن الإحساس بعدم الإشباع الفردي، ونظرية

58. عتريس، طلال، "قراءة في الأبعاد الثقافية والاجتماعية والدينية لظاهرة العنف"، مجلة الحياة الطيبة، ع9 س 3 ربيع 2002، ص ص 85-91

59. عبد الرحمن، طه، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي البيضاء ط1، 2002، ص ص 33-34

60. خليل، أحمد خليل، "سوسيولوجيا العنف"، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 27-28 خريف 1983، ص 19

ثقافية ترد الحروب إلى التقاليد الاجتماعية الثقافية، مثل النزعة العسكرية البروسية، والنزعة الاستعمارية البريطانية[61].

وهناك غيرها من النظريات، التي تحاول جاهدة إيجاد تفسير ممكن ومعقول، استناداً إلى معطيات وتحليلات معينة، وبتعدد المجالات الدلالية للمفردات، التي تترجم «عنفاً» حتى في اللغات الإفرنجية، كـ violence بالفرنسية والإنجليزية، وgewelt بالألمانية لها معانٍ يتعذر حصرها في معنى واحد، كما لاحظ ذلك عن حق بعض الباحثين (فرنسواز إريتين- وإتيان باليار على سبيل المثال). وتبقى إذن مسألة تعريف العنف ومقاربته مسألة مفتوحة[62] وقابلة لأن يدلي كل واحد بدلوه بناء على تخصصه العلمي والأكاديمي.

والعنف هو سلوك متبادل، يبدأه الفاعل ويواجهه القابل، فمواجهة القابل للحدث العنفي تستلزم مقاومته، فتعني استئناف العنف المبتدأ بعنف مختلف، وتعني انطلاق مسار العنف والعنف المقابل اللذين لا يكادان يخلو منهما شعب أو جماعة أو فرد؛ فهما سلوكان ملازمان للطبيعة البشرية كلما احتاج إليهما يصرفهما في علاقاته، والدارسون من جانبهم ينظرون إليهما كحالة مرضية تحتاج إلى معالجة وتطويق، أو كان الأحرى دراسة خطاب العنف عموماً بوصفة معرفة، ففي ثقافة أي شعب من الشعوب نجد خطاب عنف، خطاب تنازع وتغالب خطاب حرب[63]، وقليلاً ما يتمكن أي تجمع بشري بلغ مبلغاً في التطور والإبداع من تصريف وتحويل حالة العنف التي يكتنزها ثقافياً واجتماعياً ونفسياً نحو ضحية بديلة، إذ إنّ نحر الضحايا الحيوانية يحول العنف عن فئة بشرية إلى كائنات ليست ذات قيمة أو على الأقل إلى مخلوقات لا يستوجب نحرها ثأراً[64]، فحافظت الإنسانية على إنسانيتها واستمرار ازدهارها الكامن في تواصلها وتفاهمها فقط بتصريف عنفها ونوازعها المشينة ناحية لا يأتيها منها ضرر، وخاصة بعد أن أظهرت الدراسات السلالية حقيقة الأضحية كعنف بديل وكبش فداء للبشر، أي كمحوّل للعنف عن هدفه الحقيقي، فبعد دراستها لسلوكات مجموعة من القبائل البدائية، كانت النتيجة أنّ العنف البديل اللاحق بالأضحية يحمي الجماعة من العنف المدمر[65]، وأهم من ذلك ما ورد في التوراة حول قابيل وهابيل، حيث لا يعطي سفر التكوين عن كل أخ سوى إشارة واحدة، قابيل يحرث الأرض ويقدم لله ثمرات حصاده، وهابيل يذبح لله باكورة ماشيته، وأنّ الذي يقتل الآخر هو ذلك الذي لا يملك ما يخادع به العنف أي الأضحية الحيوانية، وامتدت ثقافة الأضاحي لتجد لها مبرراً في الثقافة الإسلامية وامتداداً ليؤصل لها، انطلاقاً من قصة نبي الله إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، حيث إنّ الأب رأى في المنام أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء حق: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

61. قراءة في الأبعاد الثقافية والاجتماعية والدينية لظاهرة العنف، مرجع سابق، ص ص 89-90

62. حمودي عبد الله، مصير المجتمع المغربي، دفاتر وجهة نظر، ط2004، ص 111 إلى 113

63. سوسيولوجيا العنف، مرجع سابق، ص ص 19- 25. (بتصرف).

64. "العنف والأضحية في الأسطورة والمأساة"، مرجع سابق، ص 146

65. نفسه ص ص 146-147

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى)[66]وامتثل الابن لطلب أبيه، خاصة وأنّ الأمر كان أمراً إلهياً: (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِين).[67] فامتثل الاثنان في عملية طمر العواطف، الأبوة من إبراهيم وإنكار الذات واستعداد للفداء من إسماعيل، في ذروة مشاعر التسليم للإرادة الإلهية: (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)[68]، عندما حدث انعطاف في مسيرة الأحداث وتقرير مصير إسماعيل عليه السلام لإلغاء فكرة القربان البشري جملة وتفصيلاً من التاريخ الإنساني، وما يقرب إليها من قول وعمل: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)[69]، القصة تحمل ثلاثة رموز: عمق الإيمان والامتثال لأمر الله، وسيطرة فكرة القربان في التاريخ، وقلب التفكير بإيقاف عملية ذبح الإنسان والتقرب بدمه، واستبدال ذلك بالحيوانات[70]، وانطلقت سنّة الفداء المرتبطة بإحياء الذكرى الإبراهيمية.

فكل سنة يحتفل فيها المسلمون بعيد الأضحى، ويتقربون إلى الله بالأضاحي تعبداً وتكريماً لقصة الفداء التي منحت شكلاً جديداً في كيفية التعبير عن الفرد لربه، فحجبت عنف الإنسان الموجه ضد أخيه الإنسان، فكانت الحادثة بحق، كما عبر عنها الأستاذ خالص جلبي[71] إعلاناً إبراهيمياً: «ألا تضحية بالإنسان بعد اليوم»، ثم تلقى الإسلام المبدأ الإبراهيمي فجعله أساس تعميق ركائز السلام التي تشع من مختلف شعائره، ولو كانت جهاداً مرتبطاً بساحة الحرب والقتال، فتربى المسلم على تلك القيم النبيلة وخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته الإسلامية في عدة مواقف وفي مختلف القضايا، فقال: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإنّ الملائكة تلعنه حتى ينتهي»[72]، إنها فقط الإشارة بالحديدة، فما بالك بالقتال والنزاع بل بالتصفية والإلغاء؟

ولعل قصة القربان الأخرى سالفة الذكر الموجودة في القرآن التي تتحدث عن سبب الصراع بين ولدي آدم، تتكامل في صياغة منهجية واضحة مع الحديث الشريف في الطريقة السليمة للتعامل مع الفتن والحروب، وجميع أنواع العنف، فقد روي عن أبي ذر الغفاري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حدثه عن الفتنة التي ستقع بعده ناصحاً، قال عليه السلام: «يا أبا ذر، قلت: لبيك وسعديك قال: كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم، قلت: ما خار الله لي ورسوله، قال: عليك بمن أنت منه، قلت يا رسول الله: أفلا آخذ سيفي وأضعه على عاتقي، قال: شاركت القوم إذن، قلت: فما تأمرني، قال: تلزم بيتك، قلت فإن دخل

66. سورة الصافات: من الآية 102

67. الصافات: من الآية 102

68. سورة الصافات: 103

69. سورة الصافات: 105-106

70. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 229

71. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 213

72. أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، رقم 4741

علي بيتي، قال فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف، فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه»[73]. إذا نشب الصراع بين طرفين فإنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة بيّنا لنا أسلوباً جديداً في كيفية حل هذا الإشكال، وبأنّ الطرف الناجح تنازل عن القوة من طرف واحد، وأبدى استعداده ليس أن يقتل الآخر، بل أن يموت دفاعاً عن الموقف السليم[74]، ومن خلال الحادثتين: (قصة ابني آدم وحادثة إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام) وما دعا إليه النبي عليه الصلاة والسلام أبا ذر عند وقوع الفتنة، يمكن أن نقول إنّ الإسلام يقدم بديلاً حقيقياً لكل نزاع قد تكون البشرية طرفاً خاسراً فيه، فأبدل مفاهيم مترسخة في البيئة الاجتماعية العربية وغيرها، ببلورة فضيلة التسامح ونبذ العنف انطلاقاً من نصوص قرآنية تتحدث عن القصص الأول، وتمثل بها الصورة التي يجب أن يواكب بها المؤمن والقارئ للقرآن مختلف التغيرات الحضارية والإنسانية، التي يجب أن نمتلك لها تفسيرات ومواقف مبنية ومؤسسة على نص منزل، معلنين بذلك امتلاكنا لمنابع زاخرة تمكننا من بناء تصور متجذر شامل ومتكامل للكون وللإنسان، وأعتقد أنه من خلال قراءة تحليلية وتأويلية متأنية للحادثتين يمكن استنتاج مجموعة من المفاهيم الجديدة والتصورات المبنية على أساس سليم، يمكن بهما أن نجعل ثقافتنا التغييرية تتدرج وترتقي إلى مستوى أفضل مما هي عليه الآن، من تخلف وعنف وتقليد ولامبالاة، فنخلق مساراً جديداً يتجاوز بعض الرؤى والاجتهادات البالية المرتبطة بالجهاد، والسلطة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر...التي تختزنها ذاكرتنا التاريخية وفكرنا الديني، وتتجسد على شكل ممارسات وسلوكات يومية.

والمجتمع الإسلامي رغم ما بلغه من تقهقر عن الركب الحضاري المعاصر، إلا أنه مازال قادراً على إثبات ذاته وتميز عطائه، بل مازال قادراً على أن يفرض نفسه بديلاً ثقافياً وحضارياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً...، وفي مختلف المجالات، على مجمل المشاريع الحضارية التي تسير حتى الآن في مقدمة الركب، ولكن بشروط لعل أبرزها العمل من داخل النسق الإسلامي، والتفرغ لدراسة الوضعية التي تعرقل انطلاقتنا لريادة مختلف الأصعدة التي نمتلك لها أرضية ومقومات، وأول خطوة يمكن أن نخطوها تكون من تراثنا الحضاري بالاستفادة منه وتجاوزه، مع الاستعانة بالمناهج العلمية الحديثة التي لا تجعلنا ننسلخ عن هويتنا وذاكرتنا، ثم أن نتسم بالشجاعة الفكرية والعلمية عند تعاملنا مع ما نمتلكه من إرث حضاري، فننتقد بمنهجية علمية أكثر اتزاناً ورصانة وبعيداً عن المذاهب المتحيزة، وبعدها يمكن تدارس نتائج بحوثنا، بكيفية تقبل إمكانية تنزيلها وتطبيقها على أرض الواقع، وأن تتبناها مؤسساتنا الرسمية وغير الرسمية. إنّ من العيوب المنتقصة لأبحاثنا عدم النظر إليها على أنها تستحق كلّ التشجيع ليتم تبنيها، ومن بين الشروط المهمة لفرز النوعية المميزة هي أن نخلق اختصاصات في الاهتمامات المعرفية وتعددها، بعد أن نبدع آلية تجميعية لطاقات ونتائج الباحثين في إطار مشاريع متكاملة، فمثلاً ما أحوجنا إلى مشاريع تنهض بتوحيد وتجميع

---

73. أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم، رقم 3717

74. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 213

وتيسير فقه المذاهب الإسلامية، ومثلها في السياسة الشرعية والاقتصاد الإسلامي، وعلم الاجتماع...، وفي مختلف العلوم العصرية والمستحدثة التي تعود بالنفع العميم على المسلمين والإنسانية جميعاً[75].

واعتباراً للتطورات الخطيرة التي يعرفها المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات التي تشهد حضوراً كثيفاً للجالية الإسلامية، على مستوى نظرة قادة المسلمين هنالك إلى التغيير، فإنّ حاجتنا إلى مشروع متكامل يبحث في جذور العنف ويتطرق إليه من زاوية تغييرية ترتبط أساساً بالسياسة الشرعية (حيث إنّ هذه الأخيرة علم ثابت بذاته ويتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والعلاقات البينية كمبادئ أساسية)، ويبدو أنّ الأمر ملح وضروري، وبحاجة إلى تعميق واجتهاد في كيفيات وإمكانيات الاستفادة من تراثنا الفقهي والسياسي، ثم بلورة النقاش انطلاقاً من تلك الأرضية حول قضية العنف في نسقنا الإسلامي، وسبل معالجة هذه الظاهرة المعضلة، وما يتعلق بها من تبعات وإشكالات، وهذا في رأيي لن يقوم إلا إذا تمكنا من تأسيس مفاهيم التغيير السلمي المبني على قيم التسامح واللاإكراه، اللذين يعتبران روح الشريعة الإسلامية وركيزتين مهمتين في عالمية الرسالة المحمدية.

إنّ في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره، أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لأتباع عقيدة معينة، إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً[76]، غير أنّ تمثل هذه الصفات، والتخلق بها من طرف بعض المسلمين تشوبه النسبية، أو أنّ مشكلاً ما في هذه القيم قد يكمن في عدم صلاحيتها، -وهذا مستبعد جداً- خاصة وأنّ أغلب الأحداث الإرهابية ألصقت بالمسلمين واتهموا بها وليس لها بالإسلام أيّ علاقة، والإشكال الآخر المطروح هو كيف أنّ الإسلام في رؤيته للكون والإنسان يطرح السلام والرحمة ضمن نظرة شاملة، وهناك من معتنقيه من تصدر منهم سلوكات لا تعبر عن جوهر الدعوة الإسلامية وخاصية العالمية التي يتصف بها الدين؟

رغم أنّ التسامح مبدأ بديل عن جميع ما يمكن أن يحل بالعنف، فقد شجعت النصوص القرآنية عليه قبل اللجوء إلى العنف، ودعت إلى عدم التحريض على العنف والكراهية، وترى أنّ العفو هو الأفضل في حل النزاعات بين المؤمنين، كما أنّ القتال مشروط بالدفاع عن النفس[77]، فلمَ لا نستثمر ما يوفره النص القرآني والحديث الشريف من مبادئ ومفاهيم تقود إلى ترسيخ ثقافة تجديدية لها أصل ثابت في عقيدتنا ونصوصنا؟ والتسامح هو فقط من أجل جمع مجموعة من المفردات التي تدل عليه في القرآن، الذي وإن لم يذكر مفردة أو مفهوم التسامح، إلا أنه ذكر العفو ولا إكراه والتذكير والتبشير والإنذار والرحمة...، كل هذا في سياق تيسير الدعوة المحمدية التي لا تحدها رمال الجزيرة العربية، بل تتجاوز ذلك الفضاء إلى فضاء أرحب وأوسع

75. هناك مجهودات مبذولة يجب الإشارة إليها والإشادة بها، من بينها مجهودات المجامع الفقهية ومؤسسات الإعجاز العلمي سواء في القرآن الكريم أو في السنّة، والمؤسسات والمعاهد العاملة على مشروع إسلامية أو أسلمة المعرفة الإنسانية، يمكن اعتبار كل ذلك خطوة مشكورة ضمن سلسلة من الخطوات التي يجب أن تتقدم نحو صحوة شاملة تهم مشروعاً حضارياً ينهض بالأمّة.

76. قطب، سيد، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، ط 6، س 1982، ص 177

77. "قراءة في الأبعاد الثقافية والاجتماعية لظاهرة العنف"، مرجع سابق، ص 93

متمثل في العالمية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[78] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً)[79]، فهذه الرحابة يجب ألا تخضع لتفكير مرتبط بزمان معين أو أشخاص يصدرون فتاوى واجتهادات قد تكون صالحة لزمانهم، كما قد تكون غير صائبة، أو أنّ الظروف لا تسمح في هذا الزمان، إلى غير ذلك من المتغيرات التي تعترض العقل الفقهي ويعرضها على النصوص والاجتهاد.

ومن المسلمات أيضاً، أنّ كل مجتمع يشتمل على حق وباطل، فمجتمع «ملائكي» مثالي صالح بكل أفراده لم يعرف في الدنيا حتى اليوم، وقد وقعت المخالفات وأقيمت الحدود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وخلفائه[80]. بذلك لم تخلُ الدعوة الدينية بدورها من العنف، سواء في الإشارة إليه على مستوى الحوادث التاريخية أو على مستوى الوقائع التي واجهت الدعوة، أو على مستوى استخدام العنف واللجوء إليه في إطار الدعوة نفسها، أو في إطار تنظيم علاقات الأفراد في المجتمع، أو على مستوى التهديد والوعيد والثواب والعقاب ...، [81] ولكن لم تتراخَ النصوص القرآنية في حال من الأحوال، في إحاطة قضية العنف بمجموعة من الضوابط التي تنظمها، فحفظت الحقوق الفردية والجماعية، وقد قسم الباحث طلال عتريس العنف الوارد في كثير من الآيات إلى ما يلي:

العنف «القتال» من أجل نشر الدعوة وحمايتها والدفاع عنها: وهذا ما نلاحظه في الآيات التالية (وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[82] (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[83] (وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)[84] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)[85]، واستدرك بأنّ النص القرآني لا يشجع على العدوان، حتى وهو يدعو إلى القتال في سبيل الله لأنّ الأمر مشروط بالدفاع عن النفس[86] كما تشير الآية التالية (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[87] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ).[88]

---

78. سورة الانبياء: 107
79. سورة الأحزاب: 45
80. لسان الحق، أحمد، الحقيقة القلبية الصوفية ودورها في إصلاح الفرد والمجتمع وحل مشاكلها الإنسانية بروح التسامح والمسالمة في السلوك الصوفي، مطبعة النجاح الجديدية الدار البيضاء ط1 1993، ص 128
81. "قراءة في الأبعاد الثقافية والدينية لظاهرة العنف"، مرجع سابق، ص 91
82. سورة آل عمران: من الآية 167
83. سورة النساء: من الآية 76
84. سورة النساء: من الآية 74
85. سورة التوبة: من الآية 73
86. انظر: "قراءة في الأبعاد الثقافية والدينية لظاهرة العنف"، مرجع سابق، ص 91 إلى 95
87. سورة البقرة: 190
88. سورة البقرة: 193

العنف كتهديد لاحق (العذاب في الآخرة): (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)[89] (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)[90].

العنف ضد الظلم والفساد: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)[91] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[92] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)[93]

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[94] (مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)[95] (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[96].

العنف كنماذج تاريخية: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)[97] (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)[98] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ)[99] (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)[100].

وقد لخص الباحث نجف علي الميرزائي[101] في دراسة[102] له أهداف الإسلام من تشريع الجهاد في صد العدوان، بأن جعل النص القرآني حظراً شرعياً على الاعتداء في كل الأحوال، واستدل على ذلك بمجموعة من الآيات القرآنية، وأضاف قائلاً: «إنّ تدقيقاً أولياً في مصادر التشريع الإسلامي للدفاع والمقاومة، وكل

89. سورة النساء: 138
90. سورة النساء: 14
91. سورة الحج: 39
92. سورة البقرة: 278
93. سورة البقرة: 278
94. سورة المائدة: 33
95. سورة المائدة: من الآية 32
96. سورة المائدة: 38
97. سورة الأنبياء: 68
98. سورة الأعراف: من الآية 136
99. سورة الأعراف: من الآية 133
100. سورة الأعراف: من الآية 127
101. السيد نجف على الميرزائي: هو رئيس تحرير مجلة الحياة الطيبة، وهي مجلة فصلية تعنى بقضايا الفكر والاجتهاد الإسلامي، تصدر عن المؤسسة العالمية للمعاهد الإسلامية العالية بلبنان.
102. السيد الميرزائي، نجف علي، "إشكالية التعاون والتسامح في المجتمع المدني الإسلامي"، مجلة الحياة الطيبة، عدد 9 س3 ربيع 2002، ص 7

مظاهر ووسائل العنف، والشدة المتمثلة في الجهاد، والغزو المشروع، يثبت أنّ الفلسفة الأساسية، والسر الحقيقي في هذه المشروعية، يكمنان في ردع الاعتداء، وردع الظلم والجور»[103].

وإنه لا علاقة إيجابية بين أي نوع من العنف والشدة والإكراه، وبين مبدأ الإيمان والفكر والمعتقد ولا شرعية كما لا فائدة من أية محاولة لتوسيع العقيدة والفكر عبر الحروب والغزو، ولا فلسفة حقيقية مادية وراء الحث الشرعي العام على الجهاد والقتال غير تكريس الدفاع، والمقاومة وتشجيع الناس على صيانة كراماتهم وأعراضهم وأراضيهم، من أن تتعرض للانتهاك والهجوم والغزو والظلم»[104] يضيف الباحث نجف الميرزائي.

وهذه كلها حقائق منطقية تتجلى في كون النصوص القرآنية، وإن كانت تدعو لعنف ما، فإنها لا تترك الأمر مفتوحاً بالمطلق للاجتهاد الشخصي المجرد، ولم تأتِ هذه النصوص لتؤسس لعبث الحكام وجيوشها وشعوبها التي قد تعيش في مرحلة العزة والتكبر، حتى تخال نفسها أرقى مخلوقات الأرض عظمة ورقياً، فتنكل بالأعراق والحضارات الأخرى كما تشاء، لكنها كبحت كل تلك الانعطافات والنزوات الخطيرة، بمقاصد نبيلة شريفة، وبمعاني عميقة وحية، لها تأثيرها الإيجابي على سيرورة وصيرورة الحياة البشرية ومستقبلها.

والتسامح مبدأ بديل عن جميع ما يمكن أن يحل بالعنف، فقد شجعت النصوص القرآنية عليه قبل اللجوء إلى العنف، ودعت إلى عدم التحريض على العنف، وترى أنّ العفو هو الأفضل في حل النزاعات بين المؤمنين كما أنّ القتال مشروط بالدفاع عن النفس[105]، فمبدئياً نرى من الضروري بادئ ذي بدء بناء منظومة فكرية حجاجية متماسكة تنبثق أساساً من أرضية نصية وتراثية، تبني ثقافة ترفض كل غلو وتطرف وعنف وتضبط آلياته، ثم تفتح أفقاً ثقافياً بديلاً روحه وجوهره التسامح والعفو واللاإكراه، وتكون له آليات متزنة تضبطه أيضاً وتقربه بشكل أفضل إلى ثقافة المجتمع وتحاجج به عقوله. وما أبلغ ما كتبه الباحث محمد محفوظ حين قال: «إنّ المنظومة الأخلاقية التي شرعها الدين الإسلامي هي من قبيل الرفق والإيثار والعفو والإحسان والمداراة والقول الحسن والألفة والأمانة، وحثّ المؤمنين به على الالتزام بها وجعلها سمة شخصيتهم الخاصة والعامة، كما تقتضي الالتزام بمضمون مبدأ التسامح، بمعنى أنّ تجسيد المنظومة الأخلاقية على المستويين الفردي والاجتماعي يفضي لا محالة إلى شيوع حالة التسامح في المحيط الاجتماعي».[106] ويخلص الباحث بعدها إلى أننا: «بحاجة إلى مجتمع جديد، يتجاوز في علاقاته وأنظمته الداخلية تلك القواعد التي ساهمت بشكل أو بآخر في تفاقم الأزمات وازدياد المآزق، ووصولنا جميعا

103. انظر: تفاصيل الدراسة، ص ص 09-10

104. نفسه.

105. "قراءة في الأبعاد الثقافية الاجتماعية والدينية لظاهرة العنف"، مرجع سابق، ص 93

106. محفوظ، محمد، "في معنى التسامح وآفاق السلم الأهلي"، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة 08 ع 28-29 صيف وخريف 2004، ص 234

إلى طريق مسدود، وحده المجتمع الجديد الذي يتمكن من تجاوز محن الراهن وبناء المستقبل على أسس حضارية وإنسانية»[107].

التسامح والعمل السلمي في أفق الإحياء الحضاري

إنّ القيم الإنسانية هي التي تجعل أفضلية التواصل والتسامح الحضاري تستمر رغم كل ما يشوب جو العلاقات من توتر وتنازع يكادان يعصفان بالثوابت الضامنة لعدم تكرار الحروب الأهلية والعالمية التاريخية المميتة، وتكمن تلك الأفضلية في تحكيم صوت الضمير، واللجوء إلى العقل والتعقل، وإذكاء المرونة في المواقف والمعاملات بدل العنف والصراع المتوحش.

إنّ الإسلام ديانة عالمية سمحة، ترفض كل إكراه وجبرية يفرضان على عقل الإنسان وروحه، وعالمية الإسلام تجعل الحضارة والثقافة الإسلامية منفتحتين على حضارات الأمم، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب، ومؤثرتين ومتأثرتين، وهذا يوضح إنكار الإسلام للمركزية الحضارية، التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك سبل الصراع –صراع الحضارات- لقصر العالم على نمط حضاري واحد، بعكس ما يريده الإسلام، عالم ينشد حضارات متعددة ومتميزة[108]، لكن ما تفرضه «العقلية الذرائعية الحديثة» من إيجاد سبل لتبرير التدخل في شؤون الدول والشعوب والأفراد باسم السلام والشرعية وتحدث مبادئ مزيفة أبرزها نشر الحرية والديمقراطية، وهذا ما يرفضه منطق الإرادة الانسانية المبني على حرية الاختيار والاحتكام للعقل، لأنّ التغيير بالإكراه وتحت صوت المدفع لا يكون ذا جدوى ما لم ينبثق الشعور بالظلم من الذات، ويتجذر الوعي بالتحرر، ثم تكون إرادة الإصلاح كافية وقوية، بناء على معطيات ذاتية وموضوعية، وتصور مسبق للكيفية التي يجب أن يتم بها كل ذلك، مع تبني مبادئ السماحة والدعوة بالحسنى دون عنف أو إكراه، مما يجعل ممارسة الرسالة أمراً مثمراً، له أصل ثابت وطيب، رغم ما يمكن أن يصحبه من صعوبات تتجاوز بالنظرة الثاقبة والجهد المكثف والصبر العميق، لتكون النتائج محمودة، وهذا ما لخصه الأستاذ خالص جلبي بقوله: «من المهم جداً التدريب الشاق على الاستمرار في عدم رد الأذى وضبط النفس وعدم التراجع والخوف، أو الشعور بالإحباط واليأس، والبقاء على الثقة بالإنسان»[109]، (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا)[110]. والثبات على مبدأ الإصلاح بناء على العمل السلمي اللاعنفي -اللذين يكونان في بدايتهما صعبين- شيء جيد، رغم أنهما قد يفقدان بعضاً من الشرعية في أعين المخالفين، أو المجتمع بصفة عامة، لأنّ فرض النموذج العنفي واعتياده قد يصل في بعض الأحايين بالمخالف إلى التعامل بالدم والقتل، بناء على رؤيته للتغيير الحقيقي وتحدياً لهذه الوضعية، ولكن كلما تمّ إبراز إيجابيات ومكاسب المبدأ الإسلامي السمح، يتم حصد مزيد من القناعات

107. انظر المرجع السابق نفسه، ص 204

108. التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الحوار من أجل التعايش، طبعة دار الشروق مصر ط1 1998 ص 80 (بتصرف).

109. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 147

110. سورة إبراهيم: من الآية 12

المساندة له، حتى من ألد الخصوم المعارضين له، مما يجعلهم يتمثلونه تدريجياً، فيجدون فيه البديل المقنع والواقعي، ومن الخلاصات الجميلة التي لخصت قضية التأثير والتأثر الإيجابي بقيم أفضلية ممارسة التغيير السلامي، ما قاله داعية العمل السلمي الأستاذ خالص جلبي: «إنّ الموقف السلامي، ينقل عدواه إلى الآخر من الحياة وبعد الممات في الحياة عند التوقف عن الهجوم، واللجوء إلى الحوار بدل الصدام وفي الموت؛ كما في قصة ولدي آدم عندما طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله، فالقرآن يصف القاتل بوصفي الخاسر والنادم، ولم يقل عن القاتل إنه بطل متفوق ربح الجولة بل اعتبره خاسراً خسر الجولة»[111].

وفي ظل زمان حاصرت فيه ثقافة البطولة والفحولة ثقافة السلم الشامخ، هذا الوضع الذي تتركز فيه هذه العقليات السلبية، والذي لم يتخلص منه بعد المجتمع العربي على وجه الخصوص، أصبحنا بحاجة إلى إعادة بلورة قيم حضارية لها جذور متأصلة في بيئتها الدينية، ومنفتحة على ثقافات إنسانية أخرى من أجل استيعاب شامل لاستراتيجية النهضة المأمولة، ثم لكي نبني لنا مجتمعاً مستقراً يحتضن الإنسان المسلم في اطمئنان وسلام، بعيداً عن قيم الغدر السياسي والاجتماعي والتربوي المميت، فذاك هو المجتمع المنشود، الذي يجب على الجميع الانخراط في تحدي بنائه، بدل تكريس بناء مجتمعات الأشباح المخربة والخاملة أو المتطرفة، مجتمعات هجرها أبناؤها مطالبين بالأمن والأمان، باللجوء السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري عند أول إرهاصات التغيير.

وتحقيقاً لمجتمع العدل والفضيلة والحق فإنّ الفكر والخطاب السلمي لا بدّ أن تعطى لهما فرصة التداول والانتشار دون عقبات، وذلك لما لهما من إمكانات واعدة في اكتساب خطاب السلم المستجد المعنى، والاتجاه اللازم لإحياء وبعث هذه الثروة الكافية من المفاهيم والأدبيات الإسلامية المعنية ببناء مستقبل سلمي[112]، وهذا ممكن فقط إذا تضافرت جهود العاملين والباحثين في سلك الدعوة الإسلامية، وساعدت الطبقات الاجتماعية وغيرها في تكريس مضامين تؤسس لأرضية مستقبل بلا حروب ولا نكبات، مستقبل يعمره السلام منذ مراحله الأولى، بداية بالولادة (وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)[113]، فيتدفق مع نبضات كلّ فرد معلناً حقبة عوالم جديدة أفراده سلاميون يدخلون في السلم كافة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[114]، يؤسسون مجتمعات ركائزها عمل صالح وإعراض عن الجهل والجاهلين بترجيح السلام (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)[115]، عقيدتهم الحنيفية السمحة دستورهم الذي يعرفون به الله السلام (هُوَ اللَّهُ الَّذِي

111. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 147

112. راجع: دو غلاس كرو، كريم، "تأصيل السلام في الخطاب الإسلامي"، مجلة إسلامية المعرفة، س 7 ع 25 صيف 2001م ص 91-92، (بتصرف).

113. سورة مريم: 33

114. سورة البقرة: 208

115. سورة القصص: 55

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[116]، يبتغون به رضوانه ودار السلام (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[117] التي أعدها الله لعباده المخلصين ودعاهم إليها (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ)[118] ليقيموا فيها ويعيشوا حياة سرمدية أبدية في سلام (خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ)[119]، فيحيي السلاميون قيمة الاختلاف والعفو، وتزيد عبادتهم جمالاً وتزيد من احترام الآخر لهم رغم اختلافهم ومخالفتهم له، وقد قال الأستاذ خالص جلبي: «إنّ القرآن استخدم كلمات جميلة اعتبر فيها أنّ الذي يلقي السلام يجب عدم اعتباره كافراً[120]»؛ مصداقاً لقوله تعالى: (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)[121]، وأهمية هذه المعاني أنها تجعل الأمل أفقاً قادماً تستبشره مجتمعات المستقبل، التي ستقوم على السلام ومن بينها المجتمع الإسلامي، المتميز برسالة رائدة استطاع بها النبي صلى الله عليه وسلم، الوصول إلى ذروة التأسيس والتنزيل في ظل مجتمعات قبلية ضاقت صدورها بالصراع والبداوة، لما كانوا عليه من عقلية لا تتجاوز حدود المصلحة الآنية المحددة بحدود القبيلة والنزعة العصبية، التي لا تقبل إلا العنف وقيم الذكورة المعززة بالقوة والجحود وسلوكات الجاهلية، وقد حقق النبي عليه الصلاة والسلام في ظرف وجيز معجزة تاريخية، بأن خرج بتلك الثقافة الراكدة المتوحشة، وبتلك المجتمعات الممزقة البدائية إلى أن تتبوأ قمة التحضر، ولتكون خير الأمم التي عرفتها البشرية (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)[122] (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)[123] مجددة مسيرة الوعي الإنساني نحو أفق الكمال المعرفي والريادة الحضارية.

ثم يجب التأكيد لحظة الحديث عن العمل السلمي واللاعنفي، أنّ التحيز للنصوص التي تدعو إلى هذه التصورات أو غيرها، دون الأخذ بعين الاعتبار تكامل النصوص مع بعضها بعضاً، وانسجامها مقصداً وسياقاً، غير صحي ولا يجوز، بحيث إنّ الحاجة ماسة إلى القراءة الشاملة المتكاملة للنصوص، التي تدعو إلى السلم والعفو والسماحة، والنصوص التي تطالب المؤمن المسلم بالجهاد والخروج بشكل عنيف...، ووفقاً لهذا فإنّ التعبير، من وجهة نظرنا، ينطلق من بلورة النقاش أولاً حول النصوص القرآنية والدينية والتراثية، التي تدعو إلى الجهاد والعنف، والنصوص التي تدعو إلى السلم والعفو، أو بشكل آخر الدعوة إلى تعميق النظر والاجتهاد في مفاهيمنا المتداولة على ضوء المعطيات المعاصرة والظروف العالمية الجديدة،

---

116. سورة الحشر: من الآية 23

117. سورة الأنعام: 127

118. سورة يونس: من الآية 25

119. سورة ابراهيم: من الآية 23

120. سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، مرجع سابق، ص 133، بتصرف.

121. سورة النساء: من الآية 94

122. سورة آل عمران: من الآية 110

123. الحج: من الآية 78

وإجراء مسح جدي وعلمي لمختلف المفردات والعبارات التي تتحدث عن التغيير، ثم بعد ذلك صياغة منظور لها متكامل ومتوازن يفسرها، ويؤسس للأمّة منظومة متأصلة ومتجددة تشكل إضافة نوعية ترشد مختلف العلوم الإسلامية والإنسانية لوجهتها الصائبة، وبالأخص علم السياسة الشرعية وفقهنا المعاصر، وعلى افتراض وقوع هذا، فإنّ بالإمكان مناقشة عدة تحديات دون خجل ولا وجل، يفترض أنّ الأمّة تملك حلولاً وأجوبة شافية، مثل الجهاد والاستشهاد والثورة والخروج، الدولة والخلافة والحاكم والعلاقة الرابطة بينهما والمحكوم (أي الأمّة) والحدود الشرعية والجغرافية للدولة (دار الإيمان ودار الكفر ودار الإسلام ودار الحرب...) وأهل الذمّة والعلاقة بين مختلف الدول، وقد أجزم أنّ العقل الفقهي المسلم الواعي المتجدد -بعيداً عن الاختلافات العقدية والمذهبية- يستطيع بقراءته المتأنية والمستكملة للأدوات المنهجية والتفسيرية للنصوص الدينية إبداع نتاج فقهي قوي يشكل إضافة نوعية للفكر الإنساني، فيستجيب لمتطلبات هذا العصر وتحدياته الكثيرة والخطيرة ويخرج الأمّة من مأزقها الحضاري الحالي.

خـــاتمـــة

هذا البحث: «ثقافة العنف واللاعنف في الفكر الإسلامي» له آماله وآلامه في ذاكرتي، لما عشته معه من مخاض عسير، لأنه تجلٍ من تجليات التجربة الذاتية، إن لم أقل هو نتاج قراءات ومراجعات فكرية، كما أنه خلاصة ممارسة النقد الذاتي على تجربة يسيرة خضناها وبعض زملائنا الأفاضل في العمل الدعوي والسياسي في المرحلة الجامعية.

إنّ العنف في النسق الإسلامي يعتبر واقعاً خطيراً، يجب مواجهته بآليات مضادة له، ولكن بخلفية حضارية تحاصره في معاقله، ثم تصحح ما يتبناه معتنقوه من تصورات فكرية وأيديولوجية متطرفة، مع الالتزام بأدبيات تدبير الحوار والاختلاف، ودون السقوط في الاستفزازات أو الإقصاء المتبادل.

لا بدّ للعقل العربي- المسلم الذي يتحيز بشكل غير موضوعي لمراحل تاريخية لتبرير بعض الأعمال التي يقوم بها في العصر الراهن، لا بدّ له من كف تحيزاته السلبية التي يسيج بها مطامعه المغلفة بالتبريرات، سواء منها النفسية أو الثقافية أو الأخلاقية أو السياسية، فقيم هذا العصر رغم أنها تشكل تحدياً قوياً يعترض كل المجتمعات؛ إلا أنها في الآن نفسه ترسم مسارات متعددة تمكن كل الثقافات من لعب دور فعال في إرشاد الإنسانية وبناء الحضارة، وعلى الإنسان المسلم أن يعي دوره ومصالحه ولحظته التاريخية. كما أنّ الحاجة ماسّة كذلك لإعادة التفكير في المباحث السياسية الإسلامية التي تكتنز الكثير من الأفكار والمذاهب التي لا تنسجم مع طموحات الأمّة العادلة. فقيم العنف والتطرف ليست من الإسلام السمح في شيء، بل هي قيم تنسجم وبيئة الأشخاص ونمط تفكيرهم ونفسياتهم، ولا علاقة لها بعمق رسالة الدين ومقصديته، فهو بريء من تلك التهم والاعتقادات والسلوكات، باعتباره جاء ليحرر الإنسان من أخطائه ونزعاته، ويصوب معتقداته

ويفك له ألغاز النفس والمجتمع والكون، ويكشف له قوانينها، ويرشده للطريق المستقيمة التي بها سعادته، وليفتح أمامه آفاقاً للسكينة والتدبر والإبداع.

وإذا كانت الحركات الإسلامية قد شكلت إضافة نوعية للفكر الاجتماعي والسياسي الإسلامي، فإنها سقطت في أخطاء جمّة، فممارسة بعضها للعنف واعتناق الأفكار المتطرفة، جعل المجتمع ينفر من بعضها فراره من الطاعون، خصوصاً أنها استحلت المحارم وهدمت ركائز الاستقرار الروحي والفكري، ونهجت نهج الشدة بالناس، وتورطت في أعمال تناقض روح القيم الدينية الأصيلة، واتخذتها أيديولوجية للعمل والحراك ضد المجتمع. إنّ الدورة الحضارية الإسلامية بحاجة لتفعيل منهج التجديد والتثوير الجاد والبناء، والانفصال عن كل ما يعيق بناء تصورات فقهية ومذهبية حديثة تستجيب لروح العصر وحاجات المسلم المعاصر.

ثم إنّ المجتمع العربي والمسلم يحتاج إلى تفعيل مشروع السلم بدل العنف أكثر ممّا يحتاج إلى إثبات وجوده بالعنف والنزاعات الدموية. ونؤكد على مقدرة مجتمعنا على صنع نموذجه الحضاري البديل للنموذج المادي الغربي، ما أن تسمح له القدرة على تجاوز ظروفه المعرفية المتخلفة وآلياته المنهجية العتيقة وصعوباته النفسية المعقدة والمتراكمة عبر التاريخ، ثم التخلص من بعض المؤامرات التي تحاك ضده هنا وهنالك، فيتحقق فيه تغيير ما بالأنفس بإرادته الحرة، وإصراره على أن يكافح ضد قيم الظلم والجهل والاستبداد والعنف والاستلاب. فالحرية لا تتأسس على ركائز تسلب إرادة الإنسان، كما أنّ المجتمعات المتحضرة والمؤمنة لا تبدأ طريقها نحو النهوض بالجهل وحشد السلاح وسفك الدماء، إنما يتم ذلك بالمعرفة والإرادة الصادقة والحرة، ثم بالسلم والقدرة الذاتية على التجدد والانفتاح على التجارب الإنسانية النافعة، دون حرج أو خجل، فكل المكتسبات البشرية من إبداعات وأفكار وأشياء يمكن أن نتشاركها فيما بيننا جميعاً، دون تحيز أو تطرف، كذلك هي مصائرنا والمقاصد الخيرة والمآلات الإنسانية كلها مشتركة.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.
- الإنجيل (العهد الجديد)، طبعة عربية 1976
- الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم 4741
- الإمام أبو داود، في كتاب الفتن والملاحم، رقم 3717
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: مادة «عنف»، دار صادر بيروت.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية، دار الفكر دون تاريخ.
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الحوار من أجل التعايش، طبعة دار الشروق مصر، ط1، 1998
- الطويل، توفيق، قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1981
- السبتي، مخلص، الصحوة الإسلامية بالمغرب، الأسس المعفية وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. الأولى 1995
- الفاروقي، إسماعيل راجي، أصول الصهيونية في الديانة اليهودية، مكتبة وهبة، مصر 1988
- قطب، سيد، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق ط 6، س 1982
- محمد عزت الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان، دار القلم دمشق الطبعة الثانية سنة 2002م، ص ص 285 -291
- جلبي، خالص، سيكولوجية العنف وإستراتيجية الحل السلمي. دار الفكر العربي المعاصر، بيروت، ط. الأولى 1998
- خليل، عماد الدين، دراسات في السيرة، دار النفائس ط 1، 1997
- عبد الرحمن، طه، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي البيضاء ط1، 2002
- لسان الحق، أحمد، الحقيقة القلبية الصوفية ودورها في إصلاح الفرد والمجتمع وحل مشاكلها الإنسانية بروح التسامح والمسالمة في السلوك الصوفي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1، 1993
- يسري، أحمد، حقوق الإنسان وأسباب العنف في المجتمع الإسلامي في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي الجامعي، دون ذكر لمكان الطبع، ط. الثانية 1995
- موقف القرآن الكريم من العنف، مؤلف جماعي، كتاب الجيب عدد استثنائي 32، الصادر عن جريدة الزمن حول: «الديانات السماوية وموقفها من العنف»، 2002م.

المجلات والصحف

- مجلة إسلامية المعرفة، س 7 ع 25 صيف 2001م
- مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة 08 ع 28-29 صيف وخريف 2004
- مجلة دفاتر وجهة نظر، ط 2004
- مجلة الكلمة، عدد 43 س 11 ربيع 2004
- مجلة الحياة الطيبة، عدد 9 س 3 ربيع 2002
- مجلة المنطلق الجديد، عدد 06 شتاء ربيع 2003
- مجلة العربي، عدد 458، السنة 1997م.
- مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 27-28 خريف 1983
- جريدة التجديد المغربية، الجمعة –الأحد 4-6 يونيو 2004، العدد 944، ص 12

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنــون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسـات والأبحـاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016